الأنا والآخر في الرّواية النّسويّة العُمانيّة
بين التّمثيل الواقعيّ والتّخييل الأدبيّ

The Self and the Other in Omani Feminist Fiction
Between Realistic Representation and Literary Imagination

إعداد

د. مريم البادي
Dr. Mariam Albadi
أستاذ مساعد النّقد الأدبي الحديث، جامعة نزوى - (سلطنة عمان)

د. عمر السّعدي
Dr. Omer Al-Saadi
أستاذ مساعد النّقد الأدبي الحديث، جامعة الشرقيّة - (سلطنة عمان)

أ.د. هاني إسماعيل أبو رطيبة
Prof. Hany Ismaiel Abo Retaba
أستاذ النّقد الأدبي الحديث، جامعة نزوى - (سلطنة عُمان)

Doi: 10.21608/mdad.2025.445274

استلام البحث	١٥ / ٥ / ٢٠٢٥
قبول النشر	٢١ / ٦ / ٢٠٢٥

البادي،مريم والسعدي،عمر وأبو رطيبة،هاني إسماعيل (٢٠٢٥). الأنا والآخر في الرّواية النّسويّة العُمانيّة بين التّمثيل الواقعيّ والتّخييل الأدبيّ. ***المجلة العربية مـــداد***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ٩ (٣٠)،١٠٣-١٤٨.

http://mdad.journals.ekb.eg

ISSN: *2537-0847* eISSN: *2537-0898*

الأنا والآخر في الرّواية النّسويّة العُمانيّة بين التّمثيل الواقعيّ والتّخييل الأدبيّ

د. مريم البادي[١]، د. عمر السّعدي[٢]، أ.د. هاني إسماعيل أبو رطيبة[٣].

ملخص:

تتناول هذه الدّراسة تمثيلات «الأنا» العُمانيّ – العربيّ مقابل «الآخر» الأجنبيّ في الرّواية النّسويّة العُمانيّة الصّادرة بين ٢٠١١ و٢٠٢١، انطلاقًا من الوعي المتزايد بأهميّة الخطاب السّرديّ بوصفه فضاء لتفكيك الثّنائيات الهويّاتيّة والثّقافيّة.

اختيرت خمسة نماذج من الرّواية النّسويّة العُمانيّة مدوّنة للتّحليل: «جنون اليأس» لغالية آل سعيد، و«نارنجة» لجوخة الحارثي، و«ظلّ هيرمافرديتوس» لبدرية البدري، و«أصابع مريم» لعزيزة الطائي، و«كارما الذئب» لبدريّة الشّحي؛ كونها تقدّم تمثيلات متباينة وغنيّة عن علاقة الأنا العُمانيّ، والعربيّ عمومًا، بالآخر الغربيّ، إضافة إلى امتيازها بتنوّع الأسلوب والرّؤية.

يعتمد البحث على المنهج التّحليليّ الاستقرائي لفحص المدوّنة المختارة، مستندًا إلى المنظور النّقديّ لما بعد الاستعمار، لاسيّما أفكار إدوارد سعيد عن الاستشراق؛ للكشف عن كيفيّة تمثّل الرّواية النّسويّة العُمانيّة للذّات والغيريّة ضمن سياقات ثقافيّة وتاريخيّة متشابكة.

تخلصُ الدّراسة إلى أنّ الرّواية النّسويّة العُمانيّة تمثّل مجالًا خصبًا لتفكيك العلاقة بين الأنا والآخر، ونقدها، وتقديم سرديّات بديلة تتجاوز الصّور النّمطيّة، ساعية إلى بناء حوار متوازن بين الشّرق والغرب، يقوم على النّديّة والتّأمل النّقديّ لا على التّبعيّة أو الرّفض المطلق.

الكلمات المفتاحية: الرّواية العُمانيّة، الأنا والآخر، رواية ما بعد الاستعمار، الاستشراق، الهويّة.

[١] أستاذ مساعد النّقد الأدبي الحديث، جامعة نزوى، سلطنة عُمان.

[٢] أستاذ مساعد النّقد الأدبي الحديث، جامعة الشّرقيّة، سلطنة عُمان.

[٣] أستاذ النّقد الأدبي الحديث، جامعة نزوى، سلطنة عُمان.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

(*) هذا البحث حاصل على تمويل من جامعة نزوى بسلطنة عُمان في إطار الدّعم الدّاخلي للبحوث والمُشار إليه بالعقد رقم: UoN/CAS/IF/2023/6

The Self and the Other in Omani Feminist Fiction: Between Realistic Representation and Literary Imagination

Dr. Mariam Albadi[4] , Dr. Omar Alsadi[5] , Prof. Hany Ismaiel Abo Retaba[6]

Abstract:

This study explores the representations of the Omani-Arab "self" in contrast to the foreign "other" in Omani feminist novels published between 2011 and 2021. It begins from the growing awareness of the importance of narrative discourse as a space for deconstructing identity and cultural binaries.

Five works of Omani feminist fiction were selected for analysis in the current study: "The Madness of Despair" by Ghalya F.T. Al Said, "Bitter Orange" by Jokha Alharthi, "The Shadow of Hermaphroditus" by Badriya al-Badri, *Maryam's Fingers*" by Aziza Al Taie, and "Karma of the Wolf: Physics (2)" by Badriya Al Shihi. These texts were chosen for their diverse and rich portrayals of the relationship between the Omani Arab self and the Western other, as well as for their stylistic and conceptual variety.

The research adopts an inductive-analytical method to examine the selected samples, drawing on the critical framework of postcolonial theory particularly Edward Said's concept of Orientalism to uncover how Omani feminist fiction represents selfhood and alterity within complex historical and cultural contexts.

4. Assistant Professor of Literary Criticism, University of Nizwa, Sultanate of Oman.
5. Assistant Professor of Literary Criticism, A'Sharqiyah University, Sultanate of Oman.
6. Professor of Literary Criticism, University of Nizwa, Sultanate of Oman.

ISSN: *2537-0847* eISSN: *2537-0898*

The study concludes that Omani feminist fiction serves as a fertile ground for deconstructing and critiquing the relationship between the self and the other. It offers alternative narratives that transcend stereotypes, aiming to establish a balanced dialogue between East and West based on mutual respect and critical reflection, rather than subordination or absolute rejection.

Keywords: Omani Novel, Self and other, Postcolonial novels, Orientalism, identity.

. . .

أولًا: مقدّمة:

يصف طارق الطيّب العلاقة بين «الأَنا» و«الآخر» بأنّها من المسائل الجدليّة التي طالما شغلت الفكر الإنسانيّ، إذ يوضّح أنّ هذه القضيّة، رغم كونها قديمة وجديدة في آنٍ معًا، قد استُثمرت في الأبحاث والنّقاشات الفكريّة والأدبيّة لعقود، ولا شك أنّها ستظلّ حاضرة في المستقبل[٧].

و«الأَنا» ضد أو نقيض للـ «آخر»»، ما يُنتِج حالة من التّنافس والصّراع بين الجانبين، وهو وراء ظهور جماعات إيديولوجيّة وأحزاب سياسيّة، فضلاً عن نظريّات علميّة حافلة بحراكٍ فكريّ مؤثّر[٨].

وبما أنّ الأَدب يعكس تطلّعات الإنسان ويعبّر عن شؤون الفكر الاجتماعيّ والسّياسيّ، فقد كانت قضايا «الأَنا» و«الآخر» محورًا أساسيًا في الأدب عمومًا، وقد

[٧] طارق الطيّب: صورة الأنا – الآخر في الرواية وفي الحياة (تجربة شخصيّة وأدبية)، ضمن: صورة الأنا والآخر في الرواية، دائرة الثّقافة والإعلام، حكومة الشّارقة، ٢٠١١، ط.١، ص.١٩١.

[٨] محمد بن يحيى أبو ملحة، التيارات الفكرية في الرواية السعودية والموقف من الآخر، ضمن: تمثيلات الآخر في الرواية العربيّة، دار الانتشار، بيروت، مطبوعات نادي الباحة الأدبي، المملكة العربية السعودية، ط.١، ٢٠١٠، ص.٣٠٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

تطرّق الأدب العربيّ، شأنه شأن آداب الأمم الأخرى، لهذه القضايا، لاسيما من خلال الشّعر والسّرد الذي يقدّم تمثيلات فنيّة متنوّعة لجدليّة العلاقة بين الأَنا والآخر. والسّرد عمومًا، والرّواية على نحوٍ خاصّ، ذاكرة شاهدة على تحوّلات المجتمع وهويته، كاشفة عن نوازع الذّات الإنسانيّة، بل هي «النّوع الأدبي الذي يهتمّ إلى أكثر الحدود بعملية التحوّل وتعقيداته»[٩] في المجتمعات، وعليه فللوقوف على العلاقات البشريّة بمختلف ثنائياتها: «أنا»، و«آخر»، «شرق» و«غرب»، و«غالب»، «مغلوب»، وغيرها، والتّوترات النّاتجة منها، يستوجب الانطلاق من فحص ذاكرته السّرديّة.

في هذا السّياق، يشير محمّد نجيب العمامي إلى علاقة السّرد الوطيدة بتمثيلات الأنا والآخر، قائلًا أنّ الروايةَ العربيّة، جنسٌ أدبيّ، قد وصل إلى الأدب العربيّ عبر الحضارة الغربيّة، مما أدّى إلى تطوّر شكل الأدب العربيّ وتقديم رؤية حاضرة للآخر، سواء كان ذلك في الأَشكال الأدبيّة أو في المحتوى الثّقافيّ للرّواية. وقد أسهمت العلاقة بين العرب والغرب في تشكيل الرّواية العربيّة، وخصوصًا في تمثيلات العلاقة بين «الأَنا» العربيّ و«الآخر» الغربيّ[١٠].

وبالنّظر إلى التّباين في معالجة هذه الثّنائية في الرّوايات المعاصرة، نجد أنّ الأدب العربيّ قدّم صورًا متنوّعة تتراوح بين النّظرة التّقليديّة التي تضع الغرب في موقع القوّة والتّقدم، مقابل الشّرق المتخلّف الرّجعيّ، وبين موقف آخر ينادي برفض الغرب بالكامل، أو ربّما الانبهار به دون قدرة على الاندماج. وفي المقابل، نجد في بعض الأعمال محاولات لتجاوز هذه الرّؤى الجامدة، عبر السّعي لبناء جسور من الحوار والانفتاح بين الشّرق والغرب.

ويعدُّ إدوارد سعيد من أبرز المفكّرين الذين درسوا تأثيرات الاستشراق على تصورات «الأَنا» العربيّ، وقد بيّن أنّ النّخبة المثقّفة في الشّرق قد تبنّت أحيانًا صورة «الأَنا» العربيّة من منظور الغرب نفسه. هذا التّبني أسهم في تكريس الفجوة بين

---

[٩] روجر آلن، الرواية العربيّة: كتابة تاريخها ولزوم إعادة كتابة تاريخها، ضمن: صورة الأنا والآخر في الرواية، دائرة الثّقافة والإعلام، حكومة الشّارقة، ط.١، ٢٠١١، ص.١٧٤.

[١٠] محمد نجيب العمامي، صورة الآخر في بواكير الرواية العربية، ضمن: تمثيلات الآخر في الرواية العربيّة، دار الانتشار، بيروت، مطبوعات نادي الباحة الأدبي، المملكة العربية السعودية، ط.١، ٢٠١٠، ص.٣٥.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

الطّرفين، وجعل «الأَنا» العربيّ في حالة دفاعيّة أَمام الآخر الأجنبيّ حينًا، ومأرجحًا مواقفه بين القبول والرّفض والانبهار في أَحيانٍ أُخرى. وقد عملت هذه المواقف على تعزيز الازدواجيّة بين الرّغبة في الانفتاح، والإلحاح على التّمسك بالهويّة، والسّعي إلى التّقليد والذّوبان في الآخر[١١].

من هذه المنطلقات، يسعى البحث الذي بين أيدينا لدراسة تمثيلات «الأَنا» العُماني-العربيّ مقابل «الآخر» الأجنبيّ في الرّواية النّسويّة[١٢] العُمانيّة الصّادرة في الفترة بين ٢٠١١ و٢٠٢١. يتساءل البحث عن كيفية ظهور هذه التمثيلات؟ وما الأبعاد الثّقافيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة التي تُشكّل هذه العلاقة في الرّواية النّسوية العُمانيّة؟

- **سؤال البحث ومنهجيته:**

يعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي الاستقرائي في دراسة تمثيلات «الأَنا» العُمانيّ- العربيّ مقابل «الآخر» الأجنبيّ في الرّوايات المختارة. الهدف الأساسيّ هو النّظر تحديدًا في كيفيّة تعبير الكاتبات العمانيات عن العلاقة بين هذين الطّرفين عبر خطابهن الرّوائيّ. وعليه فالسّؤال المحوريّ الذي يسعى البحث للإجابة عليه: كيف ظهرت تمثيلات «الأَنا» العُمانيّ – العربيّ مقابل «الآخر» الأجنبي في الرّواية النّسويّة العُمانيّة بين ٢٠١١ و٢٠٢١؟

- **المدوّنة ومبررات الاختيار:**

بسبب وفرة الإنتاج الرّوائي النّسويّ العُمانيّ في الفترة المعنيّة، كان من الضّروريّ وضع معايير واضحة لاختيار المدوّنة المناسبة التي تتوافق مع شروط البحث. كان من الأهميّة مراعاة شرطين: بروز «الآخر» الأجنبيّ في مضامين الأعمال المختارة، وتنوّع الأعمال الأدبيّة دون الاقتصار على نموذج أو أكثر من كلّ كاتبة، بما يسمح بتعميم نتائج البحث على نطاق أوسع.

وعليه، حُدّدت مدوّنة البحث على أساس خمس روايات نسويّة عُمانيّة صادرة من الفترة بين ٢٠١١ و٢٠٢١، وهي: «جنون اليأس»[١٣] لغالية آل سعيد، «نارنجة»[١٤]

---

[١١] ينظر: إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربيّة للشّرق، تر. محمد عناني، رؤية للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط.١، ٢٠٠٨، ص.- ص.٨٢ –٩٠.

[١٢] أينما ورد مصطلح «الرّواية/ الرّوايات النّسويّة» في هذه الدّراسة فهو يعني رواية الكاتبات.

[١٣] غالية آل سعيد، جنون اليأس، بيروت، رياض الريس، ط.١، ٢٠١١.

[١٤] جوخة الحارثي، نارنجة، بيروت، دار الآداب، ط.١، ٢٠١٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

لجوخة الحارثي، «ظلّ هيرمافرديتوس»[١٥] لبدرية البدري، «أصابع مريم»[١٦] لعزيزة الطائي، و«كارما الذئب»[١٧] لبدريّة الشّحي. هذه الأعمال تتّسم بتنوّع الأساليب السّرديّة والتّقنيات الرّوائيّة التي تعكس تمثيلات «الأَنا» العربي و«الآخر» الأجنبيّ من زوايا مختلفة، مما يجعلها نماذج نوعيّة لدراسة التّفاعلات بين الشّرق والغرب في الرّواية النّسويّة العُمانيّة.

ثانيًا: تمثيلات الأنا العربيّة

تمثّل الرّواية النّسويّة العُمانيّة مساحة خصبة لنقد الذّات، إذ تسعى الكاتبات إلى مساءلة الأنا العُمانيّة - العربيّة، وتسليط الضّوء على إشكاليّاتها العميقة من خلال السّرد. تطرح هذه الرّوايات المختارة وعيًا نقديًّا يتجاوز التّناول السّطحيّ للذّات، ليكشف عن أوجه القصور والمآزق الاجتماعيّة والثّقافيّة التي تعيشها الشّخصيّة العربيّة، قصد محاولة تفكيك هذه الإشكاليّات وإعادة التّفكير فيها. ورغم تنوّع الرّوافد التي تتشكّل منها هذه الصّورة، بين واقعيّة مستمدّة من التّجربة الحياتيّة، ومتخيَّلة تنبع من الرّؤية الفنيّة للكاتبات، فإنّها تصبّ جميعها في تمثيل نقديّ للأنا العربيّة، بعيدًا عن الانفعاليّة أو التّشويه المتعمّد أو غير المتعمّد.

وعليه يبدو أنّ مدوّنة الدّراسة تتبنّى مقاربة تتجاوز مفهوم «تشويه الأنا»، إذ تنخرط في عمليّة نقد ذاتيّ تمسّ المسلَّمات الثّقافيّة والاجتماعيّة. فالغربُ، كما يشير إدوارد سعيد، لم يصنع صورةَ الشّرق من فراغٍ، بل اعتمد على منظور الشّرق لذاته في إعادة إنتاجه لتمثيلات الشّرق في مدوّناته. ومن هذا المنطلق، فإنّ مساءلة الذّات عبر الأَدب لا تعني الخضوع للنّظرة الاستشراقيّة للأنا أو العمل على تأكيدها، بل تأتي ضرورة لمعالجة الاختلالات الدّاخليّة، وفتح أُفق إصلاحيّ جديد يُعيد تشكيل العلاقة بين الذّات والمجتمع[١٨].

ركّزنا النّظر في خمس تمثيلات بارزة للأنا في مدوّنة الدّراسة، رأيناها جديرة بالنّظر، وفيما يلي بيان القول فيها:

---

[١٥] بدرية البدري، ظِل هيرمافروديتوس، لندن، دار عرب، ط.١، ٢٠١٨.
[١٦] عزيزة الطائي، أصابع مريم، الكويت، دار الفراشة، ط.١، ٢٠٢٠.
[١٧] بدرية الشحي. كارما الذئب: فيزياء ٢. دار سؤال: بيروت، ط.١، ٢٠١٩.
[١٨] ينظر: إدوارد سعيد، الاستشراق، سابق، ص.- ص.٨٢ –٩٠.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

١. الأنا الغارقة في الملذّات الحسيّة

غذّى الشّرق، عبر مدوّناته الفكريّة والأدبيّة، خطاب الغرب عنه. فقد اتكأ الغربُ في تشكيله صورة الشّرق أساسًا على كتابات المشارقة عن أنفسهم في بناء تصوّره عن الشّرق، إلى جانب استناده على مؤلّفات الكتّاب والرّحالة الغرب. وهكذا نسجت صورة للشّرقُ قائمة على ربطه بالمتع المحرّمة والانغماس في عالم من الملذّات الحسيّة. وقد عزّزت الأنا العربيّة أحيانًا هذه الصّورة من خلال سلوكيّات مأزومة أثناء احتكاكها المباشر بالغرب؛ الأمر الذي أفضى إلى تأكيد تنميطات وأحكام مغلوطة عن العرب والشّرق عمومًا[١٩].

وتقدّم المدوّنة التي تتناولها هذه الدّراسة هذه الفكرة في نسيجٍ فنّيّ متخيّل؛ إذْ حضرت الأنا العربيّة وقد انغمست في أشكال من الملذّات الحسيّة، وكأنّها عاجزة عن تجاوز دوائر الرّغبة، ممّا يضعها في مأزق وجوديّ وأخلاقيّ.

تتجلى هذه الفكرة في رواية «جنون اليأس» لغالية آل سعيد من خلال شخصيتي «نديم نصرة» و«نافع»، اللذين يجتمعان في انجذابهما الجسدي لـ«مليحة» إذ يصفها نديم بـ«إنّها السّعادة والمتعة الجسديّة والعاطفيّة، التي تلبي شوقه [نديم نصرة] وهيامه بالشرق»[٢٠]. ورغم ارتباط أحدهما بها بوصفه زوجًا، (نافع)، والآخر عشيقًا، (نديم)، فإنّهما يواجهان المصير ذاته؛ إذ لا ينجحان في الظّفر بحبّها ورضاها، وينتهي بهما المطاف إلى اليأس والموت. أمّا مليحة، من جهتها، فتجسّد الشّرق المغويّ، المتمنّع عن أبنائه، والمُنساق نحو الآخر الغربيّ، ممثلًا في «شارلي» الإنجليزيّ، في انعكاسٍ مجازيّ للعلاقة المُلتبسة بين الشّرق وأبنائه، والشّرق والغرب. ورغم إشارة نهاية السّرد لاحتماليّة مدّة جسر وصل بين «مليحة» و«رجل غربيّ»، (بين الشّرق والغرب)، فإنّ النّصّ لا يوضّح ما إذا كان هذا التّوجّه سيؤدّي إلى علاقة أكثر توازنًا، أم أنّه مجرّد إعادة إنتاج للدّوائر ذاتها من الخيبة والصّراع بين الطّرفين.

أمّا في «نارنجة» لجوخة الحارثي، فتبرز صورة الأنا العربيّة المنغمسة في الملذّات الحسيّة من خلال مشهد الحفلة التي نظّمتها الإنجليزيّة كريستين، حيث يظهر

---

[١٩] ينظر مثلًا: ديريك هوبود، التصورات الجنسية عن الشرق الأوسط: البريطانيون والفرنسيون والعرب، تر. ناصر مصطفى أبو الهيجاء، مرا. أحمد خريس، أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، ط.١، ٢٠٠٩.

[٢٠] جنون اليأس، ص.١١٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الطّلّاب العرب منهمكين في استهلاك الكحول والانغماس في أجواء الاحتفال ومتعه البصريّة والحسيّة المختلفة. تقول عنهم السّاردة «زهور»: «انكبّ زملائي العرب على زجاجات الويسكي التي أحضروها معهم»[٢١]. ورغم أنّ المشهد عابر، فإنّه يكشف عن نظرةٍ نقديّة لنمط معيّن من التّفاعل الثّقافيّ بين الشّرق والغرب؛ إذ يصبح الجسدُ والمتعةُ عناصر أساسيّة في هذه العلاقة، دون أن تؤدّي إلى فهمٍ عميقٍ أو اندماجٍ حقيقيّ بين الطّرفين.

يتكرّر هذا النّمط في «**ظلّ هيرمافرديتوس**» لبدريّة البدري، من خلال شخصيّة «ناصر»، إذ يتزوّج من الأمريكيّة «أوليفيا» خلال فترة دراسته في الخارج، رغم علمه بأنّ عائلته لن تقبل سوى بزواجه من ابنة خالته. يقول محدّثًا «سُعاد»: «قبل قدومي لأمريكا لم أكن أسمع الأغاني؛ فعلمتني أوليفيا الرّقص على وقع نوتاتها الموسيقيّة، أحملها بين ذراعي كسنونوةٍ مُهاجرة، لتطوقني بذراعيها... عقدنا قراننا»[٢٢]. ويعكس زواجه السّرّيّ هشاشة تمرّد «الأنا»؛ إذ سرعان ما يخضع «ناصر» للضّغوط الاجتماعيّة بمجرّد عودته إلى وطنه، متخليًا عن حبّه لصالح الامتثال للأعراف والتّقاليد. هذا الانقياد المرضيّ لرغبات الذّات، ثمّ الخضوع لضغوط المجتمع، يفضي إلى مأساة شخصيّة؛ إذ تنهار علاقته بـ«أوليفيا»؛ مما يؤدّي إلى انتحارها وتشتّت أطفالهما. وهنا، لا يُطرح الزّواج المختلط بوصفه فعل تمرّد واعٍ على الأعراف، أو محاولة لهدم الهوّة بين الأنا العربيّ والآخر الأجنبيّ، بل بوصفه استجابة مؤقّتة للرّغبة والاحتياجات العاطفيّة، دون امتلاك القدرة على مواجهة تبعاته؛ الأمر الذي يعبّر عن هشاشة الذّات، وتناقضاتها الهائلة، وسقوطها في وحل الملذات والمتع المتاحة عند احتكاكها بالآخر الغربي[٢٣].

وفي «أصابع مريم» لعزيزة الطائي، نجد صورة مماثلة لهذا التّمثيل من خلال شخصيّة «حمد»، فقد عاد من روسيا متبنّيًا أنماط حياة غربيّة سطحيّة، منغمسًا في السُكر، ومتأثرًا بثقافة الآخر دون استيعابٍ جوهريّ لها. فبدلًا من أنْ يكون انفتاحه على

---

[٢١] نارنجة، ص.٣٧.

[٢٢] ظلّ هيرمافرديتوس، ص.١٤٨.

[٢٣] جميل حمداوي، صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي، مجلة الأزمنة الحديثة، المغرب، ع.٣-٤، أكتوبر ٢٠١١، ص.- ص.١٣٧-١٣٨.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

الآخر الأجنبيّ وسيلة لتوسيع مداركه وترسيخ فهمه لذاته، يصبح سببًا في تشويه هويّته وقيمه الدّينيّة، ممّا يسلّط الضّوء على فكرة التّغريب والاستهلاك غير الواعي للثّقافات الأجنبيّة اندفاعًا وراء أسباب حسيّة مباشرة.

أمّا في «كارما الذئب»، فتتمثّل الأنا المنغمسة في ملذّات الجسد في شخصيّات عديدة من أبرزها «سَلّام»، إذ يعيش في الغربة منجذبًا إلى النّساء الأجنبيات، ويتنقّل بين علاقات مختلفة، في مسعى للعثور على توازن بين الرّغبة والهويّة. ويبرز السّرد في هذه الرّواية تحديدًا مقارنة دائمة بين النّساء الغربيّات والعربيّات؛ إذ تُمثَّل الغربيات رمزًا للحريّة والجاذبيّة غالبًا، فيما يُقدَّم الشّرق في صورة المرأة المحافظة الأقلّ جاذبيّة. ومع ذلك، فالملفت للنّظر، أنّ هذه العلاقات لا تؤدّي إلى انسجام حقيقيّ بين العربيّ والمرأة الغربيّة، بل تظلّ محكومة بالفشل، سواء بسبب اختلاف الثّقافات، أو لكونها قائمة على الرّغبة الجسديّة أكثر من التّفاهم العميق والانسجام بين الطّرفين.

وهكذا تبرز هذه الرّوايات في مجملها رؤية نقديّة للأنا العربيّة، إذ تقدَّم الشّخصيّة العربيّة بوصفها ممزّقة بين انجذابها للآخر، وتمسّكها بعاداتها، وبين رغباتها المكبوتة، وشعورها العميق بالعجز أمام التّغيرات الاجتماعيّة والثّقافيّة، وهي في كلّ هذا تشفّ عن دور «الأنا» العربيّة في نسج صورة الآخر عنها، أو تأكيد الصّور النّمطيّة المأزومة عن العرب والشرق عمومًا. لكن السُّؤال الذي يظلّ مطروحًا هو: هل تكتفي هذه الرّوايات بتقديم النّقد، أم أنّها تطرح أفقًا للإصلاح؟

في بعض النّصوص المتناولة، يبدو السّرد كأنّه يضع «الأنا» في مأزقٍ دون اقتراح حلٍ، بينما تلمّح بعض الأعمال إلى إمكانيّة إعادة تشكيل العلاقة بين الشّرق وأبنائه من جهة، وبين الشّرق والغرب من جهة أُخرى، بيد أنّ هذه الإمكانيّة تظلّ مفتوحةً على تأويلات متعدّدة. إنّ النّقد الذّاتيّ الذي تقدّمه هذه الرّوايات يظلّ خطوة مهمّة نحو مساءلة الذّات، لكنّه بحاجة إلى رُؤية أكثر وضوحًا حول كيفيّة تجاوز هذه الأَزمات والأعطاب التي ألصقها الغرب طويلًا بالشّرق واعتبرها خصيصة متأصلة فيه[٢٤]، بما يُتيح تشكيل هويّة عربيّة متوازنة، قادرة على التّفاعل مع الآخر دون فقدان

[٢٤] ينظر: ديريك هوبود، التصورات الجنسية عن الشرق الأوسط: البريطانيون والفرنسيون والعرب، تر. ناصر مصطفى أبو الهيجاء، مرا. أحمد خريس، أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، ط.١، ٢٠٠٩، في حديثه عن تصورات الغرب إزاء العرب ونعتهم بالجموح الجنسيّ، مثلا: ص.١٨.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

خصوصيّتها.

٢. الأنا بين الذّكر والأنثى: الهشاشة والعورة

يعمل النّظام الاجتماعيّ بوصفه منظومة رمزيّة بالغة التّعقيد، تُكرّس الهيمنة الذّكوريّة وتسعى إلى إضفاء طابع الشّرعيّة عليها بصورة ضمنيّة ومستمرة[٢٥]. وتعدُّ ازدواجيّة نظرة المجتمع للذّكر مُقابل الأنثى من بين التّمثيلات المتكرّرة لـ«الأنا» في المدوّنة الرّوائيّة محلّ الدّراسة. إذ ترسّخ الصّورة النّمطيّة فكرة تفوّق الرّجل على المرأة، ما يجعل حقوقَه مضمونة، وأَخطاؤه مغتفرة، بينما تُفرض على المرأة أدوارٌ نمطيّة تحدّ من دورها في المجتمع، وتعرّضها للعنف والقمع؛ ممّا يجعلها أَسيرةً لنظامٍ اجتماعيّ يُعيد إنتاج التّمييز ضدّها عبر الأجيال.

يحضر هذا التّمثيل جليًّا في «جنون اليأس»؛ إذ يُصوَّر الرّجل العربيّ بوصفه سيّدًا مُطاعًا، تُبرَّر أخطاؤه دومًا، ويتواطأ معه المجتمع في اضطهاد المرأة. ويتجلّى تواطؤ المجتمع من خلال شخصيّات ذكوريّة متعدّدة، كأخ «مليحة» الذي يُمارس العنف ضدّها، بينما يقفُ الأبُ متفرّجًا، ما يعكسُ موقفه المُتماهي مع المنظومة الذّكوريّة التي تمنح الرّجل سُلطة مطلقة. كما إنّ غياب الأم يمثّل عاملاً آخر يعزّز تهميش المرأة، إذ يحرمها من سند عاطفيّ أو دعم نسائيّ في مواجهة العنف الأسري. ورغم محاولة «مليحة» تحسين وضعها الاقتصاديّ عبر بيع منتجات مختلفة لإعالة نفسها ومساعدة أهلها، فإنّ عائلتها تعاملها بوصفها مصدرًا للعارِ، فتُسلب أموالها، وتُرغم على الزّواج من رجلٍ تظنّ الأُسرة أنّه غنيّ، تنتقل للعيش معه مغتربًا في «لندن». ورغم التّحوّل المكانيّ، وانتقالها من مجتمعها العربيّ إلى لندن، تتصاعد معاناتها في ظلّ زواج قسريّ يسوده الإهمال والإهانات، ولا تملك إبداء موقفها واتّخاذ قرارها؛ فهي مثل كل النساء الخاضعات للقمع؛ ممّا يدفعها إلى الانهيار الجسديّ، أو الوقوع فريسة لرجل آخر؛ وهذا ما تعبّر عنه «جنون اليأس» من خلال سرد علاقة سريّة بين الشّخصيّة (مليحة) و«نديم»، الطّبيب المثقّف القادم من الشّرق أيضًا، الذي لا يرى فيها سوى الفتنة

[٢٥] بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، تر. سلمان قعفراني، مرا. ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط.١، ٢٠٠٩، ص.٢٧.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

الشّرقيّة، فتتحوّل علاقتها به إلى وهمٍ للهروب من واقعها المرير؛ مما يعكس إشكاليّة النّظرة الاستشراقيّة للمرأة الشّرقيّة بوصفها مجرّد موضوعٍ للرّغبة.

أمّا في رواية «نارنجة»، فتتواطأ الأنثى من خلال «زهور» ضدّ نفسها في ظلّ المجتمع الذّكوريّ؛ إذ تتلقّى الشّخصيّة دروسًا من جدّتها في الدّفاع عن نفسها، لكنّها تختارُ التّهرّب، فيستمرّ التّنمّر والقمع ضدّها. تقول «زهور» متحدّثة عن جدتها: كانت «تناولني العصا: "اذهبي الآن واضربيهم"، أتظاهر بالذهاب وأختبئ في المُصلّى خلف البيت»[٢٦]. ولم يكن اختباؤها تمردًّا على أمر جدّتها بقدر ما كان استجابة لإرث القمع والكبت الذّكوريّ الذي تجاوزته لاحقًا عبر مسار الحكيّ.

وفي موضع من الحكاية تتجاوز «نارنجة» صورة المرأة الضّحيّة عبر شخصيّة «الجدّة» القويّة التي تتصدّى لمحاولة استغلالها جسديًّا، رافضة الخضوع لمنظومة القهر الذّكوريّ، فتؤكّد قوّتها في تجاوز مآزق القمع والاستغلال بوصفها «ابنة الفارس الذي تغنّت النساء في الأهازيج بشجاعته»[٢٧]، وبقولها: «أنا بنت عامر»[٢٨] في إشارة لاعتزازها بهويّتها. هذه المفارقة بين الشّخصيّتين توضّح كيف يمكن للمرأة أنْ تكون إمّا أداة لإعادة إنتاج النّظام الذّكوريّ، أو كيانًا مقاوِمًا يسعى لكسر قيوده. صحيح أنّ قمعًا مستمرًّا على مدار الحكاية مورس ضدّ الجدّة، بدءًا من طردها من بيت أبيها، ثم فقدها بصرها نتيجة التّخلّف والجهل والإهمال، ثمّ منعها من السّفر للعلاج بحجّة أنّ «عينًا واحدة» تكفيها، ثمّ الإهمال من الأحفاد الصّغار، لكنّها مع ذلك ظلّت قويّة ورمزًا للكفاح، وقد تعمّدت رواية «نارنجة» جعلها شخصيّة رئيسة ضمن شخصيّات المحكيّ لإخراجها من دور «الضّحيّة» ومنحها دورًا فاعلًا ومركزيًّا. وبالتّالي، مثّل صوت المرأة في «نارنجة» تعبيرًا عن تمرّد أنثويّ جريء ساعٍ لخلخلة ممارسات العنف والإقصاء والتّمييز والقمع الذّكوريّ في العالم المحكيّ.

وتبرز صورة المجتمع الذّكوريّ القامع للمرأة في «ظلّ هيرمافرديتوس» من خلال تجربة «سعاد»، إذ تتعرّض للتّحرّش والتّنمر[٢٩]، وتسلبها أُسرتها الحقّ في

[٢٦] نارنجة، ص.١٣.
[٢٧] نفسه، ص.٢٣.
[٢٨] نفسه، والصفحة نفسها.
[٢٩] ظلّ هيرمافرديتوس، ص.١١.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

العلاج. ومع ذلك، تتطوّر شخصيّتها لتصبح أكثر مقاومة، «عصيّة على الانقياد»[٣٠]، فتختار دراسة التّمريض، ثمّ تسافر إلى أَمريكا طلبًا للعلم والعلاج من مرض اضطراب الهويّة الجنسيّة، متجاوزة المعتقدات المتوارثة في مجتمعها. ويعكس هذا التّحول قدرة المرأة على إعادة بناء ذاتها خارج حدود القيود الاجتماعيّة كما يقدّمها المحكيّ، مشيرًا إلى أنّ تحرّرها يتطلّب تجاوز البيئات القمعيّة والانفتاح على عوالم جديدة.

وتجسد رواية «أصابع مريم» إرث القمع الذّكوريّ ضدّ المرأة بوصفه حلقة متوارثة عبر الأجيال. فـ«مريم» التي تنشأ في منزل يرى «البنت شرف العائلة وحرمتها، بينما كلمة "ولد" تعني مصدر العز والفخر والانتماء»[٣١]، تُرغم تدريجيًّا على قبول قمع المجتمع للمرأة، رغم محاولاتها الأُولى للتّمرّد. ومع الوقت، تُعيد إنتاج هذه المُمارسات، فترفضُ تزويج بناتها ممن اخترنهم[٣٢]، مكرّسةً الإرث ذاته الذي عانت منه من قبل أُمّها وأَبيها؛ ما يعكس حلقة مأساويّة مستمرّة من القهر الاجتماعيّ، إذ تتحوّل الضّحيّة إلى أَداة لإدامة المنظومة الذّكوريّة وتنميطها.

وتقدّم «كارما الذّئب» قضيّة حرمان المرأة من التّعليم وإجبارها على الزّواج المبكر في سياق إبراز منظور الرّجل السّلبيّ للمرأة وقمعِها. وتعرضُ الرّواية أشكالًا مختلفة من العنف الاجتماعيّ، بدءًا من إجبار «حميدة» على ترك التّعليم، مرورًا بإرغامها على الزّواج[٣٣]، وانتهاءً بالعنف الجسديّ من قبل زوجها «نبيل». ومع ذلك، تعملُ الشّخصيّة على كسر قيود العنف الأسريّ والتّمييز ضدّها عبر مواصلة تعليمها، محوّلة معاناتها إلى دافعٍ لتحقيق ذاتها. وبالتّالي تعكس «كارما الذّئب» كيف يمكن للمرأة أنْ تتحوّل من ضحيّة إلى فاعلة، مُستثمرة قهرها ليصبح وقودًا للنّضال والقوّة.

وهكذا تكشفُ هذه الرّوايات في مجملها آليات ترسيخ السُّلطة الذّكوريّة في المجتمعات العربيّة، سواء عبر العنف المباشر، أو من خلال إعادة إنتاجِ القهر الاجتماعيّ من قبل النّساء أنفسهنّ. لكنّها في الوقت ذاته تطرحُ نماذج لشخصيّات نسائيّة حاولن تجاوز هذه المنظومة؛ مما يفتحُ البابَ أَمام إمكانيّة التّغيير رغم القيود المفروضة. ويبرز المحكيّ، انطلاقًا من هذا المنظور، أهميّة المقاومة الفرديّة ودور

---

[٣٠] نفسه، ص.٣٣.
[٣١] أصابع مريم، ص.٤١.
[٣٢] نفسه، مثلًا: ص.١٤٨.
[٣٣] كارما الذئب، ص.١٢.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

الوعيّ الذّاتي في التّحرّر، إذْ يصبح السّرد وسيلةً لفضح تناقضات المجتمع، وإعادة التّفكير في دورِ المرأة العربيّة في تجاوز مأزق التّمييز والعنف ضدّها.

٣. الأنا المنفصمة: التّناقض الأخلاقيّ الخفيّ

عرفت الذّات العربيّة حالة من التّشظّي العميق، أفقدتها تماسكها الدّاخلي وانتماءها إلى المنظومة الاجتماعيّة والأخلاقيّة التي نشأت فيها. لقد تفكّكت إلى ذوات متنازعة، تتجاذبها التّناقضات القيميّة والنّزوع إلى العزلة والاضطراب، ما أسهم في إنتاج شخصيّة مأزومة على الصّعيدين النّفسيّ والحضاريّ، يتجلّى فيها اضطراب نرجسيّ عميق، غالبًا ما يكون نتاجًا لمعاناة مركّبة من الكَرب النّفسيّ والتّصدّع الحضاريّ[٣٤].

تعكس الرّوايات المدروسة هذه الإشكاليّة من خلال تمثيل ازدواجيّة الذّات العربيّة وتناقضاتها الحادّة على مستوى المبادئ والقيم والسّلوكيّات. ويظهر هذا التّناقض في نماذج متعدّدة من شخصيّات المحكي تروّج لقيمٍ خيّرة بينما تُمارس نقيضَها، وتحلم بمستقبل أفضل بينما تسلك مسارات تؤدّي إلى نتائج معاكسة تمامًا لما تطمح إليه.

تعبّر رواية «جنون اليأس» عن هذا الصّراع من خلال شخصيّاتها جميعًا؛ وتظهر شخصية «نافع» كشخصيّة نموذجيّة في هذا السّياق؛ إذ يدّعي الغنى أَمام أسرة «مليحة» عبر إنفاقه الباذخ قبل الزّواج[٣٥]، مقدّمًا صورة وهميّة عن نفسه ليخدع العائلة وليظفر بابنتها زوجةً له. ومع ذلك، تكتشف «مليحة» بعد الزّواج حقيقته المغايرة تمامًا لما ادّعاه؛ فهو لاجئ يعيش على معونة محدودة يتقاضاها من صندوق المساعدات في «لندن» بعد فقدانه وظيفته. كما يدّعي «نافع» الحبّ والتّمسك بزوجته وأُسرته، لكنّه في الواقع يعيشُ عالمًا منفصلًا عنها، غير مكترث ببناء حياة أسريّة مستقرّة، مما يبرز التّناقض العميق بين أقواله وأفعاله.

صوّرت الرّواية هذا التناقض بوضوح في العلاقة بين «نافع» وزوجته؛ إذ تعبّر «مليحة» عن استيائها من سلوكه غير المسؤول، مشيرة إلى افتقاده لأيّ جهد لتحسين

---

[٣٤] انظر: شيماء نجم صفر، تشظي الذات وتحلل الشخصية وعلاقتهما بالكرب النّفسي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ٢٠١٤، ص.– ص.٣٥–٤١.

[٣٥] جنون اليأس، ص.٥٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

حياتهما، وإخراج الأسرة من حالة الفقر المدقع الذي تعيشه. تقول «مليحة» عنه: «نافع لا يشركني في أي شيء يفعله، ولا يجتهد لحياة أفضل، وأنا محقّة لو قلت لك إن نافعا قادنا إلى حالة فقر مدقع»[٣٦]، ويحافظ السّرد على ترسيخ الصّورة السّلبيّة عن «نافع»؛ فهو يتّسم بالكسل والاستسلام لتحديات الواقع، مكتفيًا بالبقاء على الأريكة والاستماع إلى الأغاني[٣٧]، في مشهدٍ يعكس خضوعه لواقعه دون محاولة تغييره. انزلق نافع إلى هاوية الهزيمة النّفسيّة، وتحديدًا أمام الآخر، إذ تُجسّد صفة «لاجئ» التي أُلصقت به عمق هذا الانكسار؛ فهو محروم من الوطن ومن الإحساس بالاستقرار؛ ما يجعل من الطّبيعيّ أن يتّسم سلوكه بالعنف والتّوتر. وقد انعكست هذه الحالة النّفسيّة المهزومة على أُسرته، التي عانت من تبعات هذا التّصدّع الدّاخليّ، كما عبّرت عن ذلك زوجته.

وتعكس شخصيّة «نديم» أنموذجًا آخرًا لازدواجيّة الأنا العربيّة؛ فهو رجلٌ متعلّم، مثقّف، يعتني بأخبار السّياسة والأدب، ويدير عيادة ناجحة، إلا أنّه في الوقت نفسه يهدم استقرار أُسرته عبر خيانته لزوجته. ويعيش تناقضًا بين كونه طبيبًا ناجحًا وعاشقًا مستترًا، متجاهلًا مسؤوليّاته تجاه أسرته، إذ يلغي مواعيد مرضاه ليستغل الوقت في لقاء «مليحة». ولا تقتصر خيانة المثقّف على بعدها الوطنيّ أو السّياسيّ، بل تتجاوز ذلك إلى خيانات متشابكة تمسّ النّسيج الأخلاقيّ والاجتماعيّ؛ بدءًا من الخيانة الزّوجيّة، مرورًا بالتّنكّر للقيم المجتمعيّة، وانتهاءً بخرق أخلاقيّات المهنة؛ كما هو الحال بالنّسبة لشخصيّة «نديم»؛ إذ يتجاوز جميع الحدود الأخلاقيّة، مستغلًا علاقته القويّة بصديقه «نافع» لخيانته مع زوجته. هذا التّصرف لا يعكس فقط خيانة الصّداقة بين الطّرفين، بل يكشف عن مدى تناقض القيم التي يدّعيها «نديم»، إذ يتفاخر بانتمائه إلى مجتمع عربيّ محافظ مغاير للمجتمع الغربيّ المنحلّ، في حين يمارس أفعالًا تُناقض ما يدّعيه. فحين التقى «مليحة» لأوّل مرّة، أسرّ لنفسه بأنّها الشّخص الذي كان يبحثُ عنه[٣٨]؛ ما يعكس رغبته العميقة في الهروب من حياته التّقليديّة، على الرغم من تعلّقه الشّديد بجذوره.

وتمثّل «مليحة» بُعدًا آخر لازدواجيّة الذّات العربيّة؛ فهي تعيش تناقضًا عاطفيًا مع «نافع» و«نديم»، مما أدّى إلى اضطراب نفسيّ وفوضى داخليّة، تنتهي بجنونها. وفي

---

[٣٦] نفسه، ص.- ص.٢٣-٢٤.
[٣٧] نفسه، ص.١٠٠.
[٣٨] جنون اليأس، ص.١٨.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

لحظة وعي مريرة، تلخص «مليحة» رؤيتها للرجال العرب بعبارة تحمل دلالات عميقة: «وجهك [نديم] ماكر كمكر الثعالب ووجهه [نافع] مستكين كاستكانة الدجاج»[٣٩]؛ ممّا يعكس إدراكها العميق لتناقضهم بين المكر والخضوع، القوّة والضّعف، الرّغبة في التّغيير والاستسلام للواقع.

ويتجلّى هذا التّناقض أيضًا في موقف «نديم» إزاء الغرب؛ حيث يعيشُ في «لندن» ويجني ثروتَه من عمله هناك، لكنّه في الوقت نفسه يزدري مكان الآخر، ويراه متّسخًا، تنتشر فيه الجريمة والمخدّرات[٤٠]. وهكذا، يعكس منظور «نديم» للآخر الأجنبيّ الصّراع بين الحاجة إلى الغرب ورفضه، وهو صراعٌ يتكرّر على مستوى الواقع؛ إذ يجري الاعتماد على الحضارة الغربيّة وانتقادها في آنٍ واحد. وتجسّد شخصية «نديم» صورة المثقّف المهزوم، العاجز عن المواجهة؛ إذ تنطوي علاقته بزوجة صديقه العربيّة على رغبة دفينة في الانتقام من ذاته التي يمقتها لضعفها، ومن صديقه الذي يرى فيه انعكاسًا لجبنه وهشاشته، ومن المجتمع العربيّ بأسره. ويتعمّق هذا النّزوع الانتقاميّ ليطال الآخر الغربيّ، من خلال نظرة ازدراء تعكس صراعًا داخليًا محتدمًا تعبّر عنها الشّخصيّة. ومع ذلك، تظلّ محاولاته في استعادة ذاته المفقودة عاجزة؛ إذ ينغمس أكثر في دوائر التوتّر والهزيمة والانحراف.

وتتجسّد ازدواجيّة الذّات في رواية «نارنجة» من خلال شخصيّة «زوج سميّة»؛ إذ يبدو محبًّا لعائلته، ومع ذلك ينزلق في دوّامة العنف وسوء المعاملة. يعبّر عن حبّه لزوجته بكلماتٍ رقيقة بعد ضربها وتعنيفها قائلًا: «لا تخافي يا دميتي، أنا زوجك، أنا حبيبك، لا تخافي»[٤١]، ومع ذلك يواصل ممارسة العنف ضدّها، مبرّرًا ذلك بأعذار واهية. هذا السّلوك يكشف عن الفجوة بين الخطاب العاطفيّ والممارسة الفعليّة؛ ممّا يعمّق فكرة التّناقض بين أقوال الشّخصيّات وأفعالها، إذ تستمدّ الشخصيّة لذّتها من إيذاء من حوله، ولا سيما النّساء. فنحن أمام ذات مقهورة، مثقلة بالكرب النّفسيّ، تسعى بشكل لا واعٍ إلى التّحرر من معاناتها عبر إعادة إنتاج القهر وممارسته على الآخر/ المرأة

(٣٩) نفسه، ص.٢١٣.
(٤٠) نفسه، ص٣٢٠.
(٤١) نارنجة، ص.٧٢.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

بوصفها الطّرف الأضعف[٤٢].

وفي «كارما الذئب» تتجلّى هذه الازدواجيّة بشكلٍ أوضح في قصّة «سلّام»؛ إذ يحبّ «حميدة» لكنّه يعجز عن الزّواج بها بسبب القيود المجتمعيّة، مما يعكس عجز الفرد أمام التّقاليد. ورغم اعتراضه على زملائه العرب الذين يتهافتون على النّساء الأجنبيّات، فإنّه يقعُ في التناقض نفسه بعلاقته مع «كيكو»، فيرفض الزّواج منها؛ مما يدفعها إلى اتّهامه بأنّه مجرد مستغل مثل بقية الرّجال العرب الذين سبق أن عرفتهم وعليه ينتهي «سلّام» بقوله: أثبتّ لها وجهة نظرها «في العرب وإنني استغللتها لقضاء احتياجاتي ولذلك كنتُ أتهرب من الزواج لأني كنتُ متناقضًا مثل كل أبناء جلدتي»[٤٣]. وعليه يجعل من أنانية العرب وتناقضاتهم سببًا لكراهية الغرب لهم: «أترانا فعلًا بنينا الكراهية بتناقضاتها وأنانيتنا؟»[٤٤].

لقد تبنّى الغرب المهيمن صورة عن الشّرق، عبر مصادر مختلفة منها مدوّنات الشّعر والأدب والرّحلات، فكانت غالبًا صورة قاتمةً «أسهم الشرق بين حين وآخر في تعزيزها»[٤٥]؛ وهي الفكرة ذاتها التي تؤكّدها «كارما الذئب» من أنّ سلوك سلّام مع الآخر الأجنبيّ وتناقضاتها عزز من كراهيّة الآخر له، ونفوره منه.

ويركّز «سلام» أيضًا في موضع من محكي «كارما الذئب» على تناقض المسلمين في ممارساتهم الدّينية، إذ يشرح لصديقته الإنجليزية «ناتالي» كيف أن كثيرًا من المسلمين ينادون بالقيم الدينية لكنّهم لا يطبقونها، قائلًا: «إنني مثل الكثيرين نخالف تعاليم الدين ونتناقض مع أنفسنا لأنّنا نحب ديننا ولكننا لا نطبق تعاليمه كسلًا أو تواكلًا»[٤٦]. هذا الاعتراف الصّريح يعكس جوهر الإشكاليّة، حيث تظل القيم الدّينية في

---

[٤٢] ينظر: مصطفى حجازي، التخلّف الاجتماعيّ: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط.٩، ٢٠٠٥، ص.٨٨ في إشارته إلى إنّ نظام التّسلط والقهر، في مستوياته اللاواعية، يقود إلى تمظهرات سادوزوجية، متمثلة في ظهور طرف قاسٍ متسلّط لا يستطيع إثبات وجوده إلا من خلال قمع ضحيّته، والحطّ من قدرها، وإلحاق الأذى بها.

[٤٣] كارما الذئب، ص.٩٩.

[٤٤] نفسه، ص.١٠٠.

[٤٥] ديريك هوبود، التصورات الجنسية عن الشرق الأوسط: البريطانيون والفرنسيون والعرب، تر. ناصر مصطفى أبو الهيجاء، مرا. أحمد خريس، أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، ط.١، ٢٠٠٩، ص.١٥.

[٤٦] كارما الذئب، ص.١٥٦.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

مستوى الخطاب، في حين تختلف الممارسات الحياتية تمامًا.

وهكذا تكشف هذه الرّوايات عن ظاهرة متجذّرة في المجتمعات العربيّة، حيث تعيش الذّات تناقضًا مستمرًّا بين القيم والسّلوك، المأمول والواقع، التّقدّم والتّخلف. وتؤدّي هذه الفجوة بين ما يُقال وما يُمارس إلى حالة من الفوضى النّفسيّة والاجتماعيّة، تمنع أيّ تطوّر حقيقيّ، وتُبقي المجتمعات في دائرة من التّناقضات التي يصعب كسرها، وفي الآن نفسه تعزز من صورة الأنا السّلبيّة في ذهن الآخر الأجنبيّ، وتقدّمه متخلّفًا رجعيًّا.

٤. الأنا: بين الرّجعية والفساد

قُرِن الاستعمار الغربيّ للشّرق وأفريقيا خصوصًا بادعاء غاية نبيلة متمثّلة في تحضير الشّعوب المتخلّفة، ونقلها من التّوحشّ إلى طابع المدنيّة[٤٧]. وفي جوهر الأمر، ليس هذا الادعاء إلّا وسيلة لتضليل وعي الشّعوب المستعمَرة وتكريس خضوعها للمستعمِر.

تقدّم مدوّنة الدّراسة صورةً للأنا العربيّ تحملُ في طيّاتها سمات التّخلّف، والفساد، والتّحايل على القوانين، وهو انعكاسٌ مباشر للبيئة الحضاريّة المنتمي إليها الخاضعة لعمليّات تزيف الوعي وتغييب العقل جرّاء ممارسات المستعمِر. ففي رواية «جنون اليأس»، تتمثّل هذه الصّفات في شخصيّات عديدة من بينها «مليحة»؛ إذ تقع ضحيّة لتقاليد متجذّرة في التّخلّف، إذ تُجبر على ترك دراستها والزّواج من «نافع» رغم نصائح المدرّسات لها بأهميّة التّعليم[٤٨]. ويُجسّد وصفها لبيت أسرتها بـ«مستنقع الذّباب الجائع»[٤٩] تأكيدًا للصُّورة السّلبيّة التي تحملها الذّات العربيّة عن نفسها.

وتظهر الأنا العربيّة في سياق الغربة كائنًا اعتاد غياب القانون، فإذا ما وجد نفسه في بلد متحضّر تحكمه القوانين، لجأ إلى التّحايل والالتفاف عليها. يتجلّى ذلك في الحوار الذي دار بين «نديم» و«نافع» بعد فقدان الأخير وظيفته، حيث يشجّعه «نديم» على الاستفادة من الإعانة الاجتماعية وإخفاء عمله عن الجهات الحكوميّة للحصول

---

[٤٧] برهان غليوم، الوعي الذاتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط.٢، ١٩٩٢، ص.٩١.
[٤٨] جنون اليأس، ص.٤٩.
[٤٩] نفسه، ص.٥٠.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

على دخل مزدوج: «لا أحد في هذا البلد يموت جوعًا. إن صعبت عليك أمور المعيشة، فستجد البديل في الإعانة الاجتماعية، ويمكنك الاعتماد عليها. ومن الممكن جدًا أن تجد عملًا آخر وتحتفظ بالإعانة والمعاش، إذا قررت إخفاء عملك عن الجهات الحكومية. من الأفضل أن تعمل في السر لتتمكن من تقاضي معاشين حتى تستطيع العيش أنت ومليحة في مستوى يليق بكما»[٥٠]. هذه الفكرة تعكس طبيعة الأنا العربيّ التي عانت من كسر القوانين في وطنها من النّخب الاستعماريّة، فراحت تتماهى معها وتسعى إلى استغلال الثّغرات القانونيّة عوضًا عن مواجهة التّحديات بأساليب نزيهة.

من الأمثلة الأُخرى على هذا السّلوك ما قام به «نديم» عندما اشترى ذبيحة ونقلها في حقيبة قماشيّة داخل قطار عام متجاوزًا بذلك قوانين الصّحة العامّة، هذا رغم إدراكه لاحتماليّة توقيفه، وطرحه تساؤلات داخليّة حول مدى صواب فعله، فإنّه استمر في طريقه إلى أن تمّ توقيفه والتّحقيق معه، حيث انتهى الأمر بإنذاره بالغرامة أو السّجن. غير أنّ السُّلطات أطلقت سراحه بعد أنْ رأت فيه شخصًا يعاني من خللٍ كبير «في تركيبته العقلية والنفسية»[٥١]؛ وهو تأكيد ضمنيّ لعدم استيعاب الأنا العربيّة للقوانين الحديثة أو استهتاره بها.

رغم وعي الشّخصيّات العربيّة في «جنون اليأس» بما ترتكبه من تجاوزات قانونيّة، فإنّها تبرّرها على نحو يعكس تطبيعها مع التّحايل. فـ«نديم»، مثلًا، يسعى لإقناع السُّلطات في «لندن» بتغيير سكن «مليحة» إلى حيّ أفضل، ويعلن بصراحة أنّه سيتحايل لتحقيق ذلك. وبصفته طبيبًا، استخدم منصبه لإقناع الجهات المعنيّة بأن «مليحة» بحاجة إلى رعاية صحيّة خاصة، ما مكّنها من الانتقال إلى مكانٍ أنسب. هذه الحيلة تعبّر عن الذّهنيّة التي تفضّل الالتفاف على القوانين بدلًا من العمل وفقها.

تنتشر النّميمة في مجتمع الجالية العربيّة في الرواية نفسها؛ إذ تتجسّس النّساء على «مليحة»، وينسجن القصص والشّائعات عن علاقتها بـ«نديم»؛ ليعزّين أنفسهن عن معاناتهن في الغربة. ويعكس هذا المشهد صورة مجتمعات عربيّة عالقة في فخّ القيل

---

[٥٠] نفسه، ص.٨٦.

[٥١] نفسه، ص.١٧٨.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

والقال، تختلق القصص وتجترّ الشّائعات لتعويض افتقادها لحياة ذات معنى.

تتكرّر الأنماط السابقة في رواية «كارما الذّئب»؛ إذ يظهر المجتمع المحكيّ بيئة قائمة على التّمييز ضدّ المرأة والنّميمة والأخبار الزّائفة. ومن هذا التّعبير عن معاناة الشّخصيات النّسويّة من الإقصاء والاضطهاد، كما في حالة «حميدة» إذ لم تجد عونًا من مجتمعها عندما كانت فقيرة وضعيفة؛ ما اضطرّها إلى الاعتماد على نفسها للعيش وإعالة أولادها. بالإضافة إلى ذلك، تسرد الرّواية مشاهد تعكس فساد المجتمع، مثل إجبار «خديجة» على الزّواج من ابن عمها، مما دفعها لاحقًا إلى خيانة زوجها، بينما يختار الزّوج الصّمت على فعلها خوفًا من سُلطة المال التي في يد والدها.

ويتجسّد النّفاق الدّينيّ في الرّواية ذاتها في شخصيّة «أبو عمر»، الذي أطلق لحيته تعبيرًا عن ورعه، في حين واقعيًّا يتشارك السُكر مع أصدقائه؛ مبررًا ذلك بأنّ هناك خلافًا فقهيًّا في حكم النّبيذ. وتُبرز محكي «كارما الذئب» تخلّف الذّات وتحايلها من خلال إلقاء الضّوء على استهتار الأنا العربيّة بحرمة العلاقات الزّوجيّة وضرورة احترامها؛ إذ يلجأ بعض الرّجال العرب في الغربة إلى الزّواج السرّي أو إقامة علاقات غير شرعيّة، في حين يحرصون على الظّهور أمام المجتمع بمظهر المتديّنين الورعين.

تقدّم الرّوايتان - في المجمل- صورة نقديّة للأنا العربيّة في المهجر، كاشفةً عن تناقضاتها، وتحايلها، وازدواجيّتها، ما يعكس استمرار تأثير البيئة الأصليّة على الذّات رغم تغيّر المكان والظّروف.

٥. جدليّة الصّراع الحضاريّ بين الأنا والآخر:

تقدّم مدوّنة الدّراسة صورة للأنا متشظّية بين التّمسك بحضارتها ومتآمرة عليها في آن. ومن خلال الشّخصيّات السّرديّة المتناقضة، ترسم النّماذج المدروسة صورة مأزومة للواقع الثّقافيّ والحضاريّ العربيّ؛ إذ يصبح التّمسك بالهويّة مجرد قشرة سطحيّة تخفي أزمات أعمق.

وتُعدّ رواية «جنون اليأس» واحدة من أبرز النّماذج المدروسة التي تعكس تشظّي الذات العربية بين التّمسك بحضارتها والتّآمر عليها في آن واحدٍ. وقد خصّصت الرّواية مساحة مهمّة لسرد هذا الصّراع، إذ تبرز الشّخصيّة الرّئيسة، «نديم»، كمثال على

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الانتماء الحضاريّ المشوب بالتّناقض؛ فهو يصف الحضارة العربيّة بأنّها أرض «الجذور المتصدّعة»، وأنّ حنينه إليها هو سبب الأسى الذي يعيش فيه[٥٢]، ومع ذلك لا يتوقّف عن السّعي وراء كلّ ما يرمز للشّرق، متجاهلاً حاضره.

يتجلّى تناقض «نديم» في لقائه الأوّل مع «مليحة»؛ إذ أبدى لها إعجابه العميق بشقّتها ذات الطّابع الشّرقيّ، وكان يصرّ على أن أجواءها تعكس نمط الحياة الذي عاشه أهله. وإعجابه لا يكمن في تمسّكه بهويته، بل في اختزالها في مظاهر سطحيّة مثل الدّيكور واللّباس، مقابل تجاهل قيمها الجوهريّة المشكّلة أساس الحضارة. فـ«نديم» يعبّر مثلًا عن رفضه الشّديد تخلّي «مليحة» عن الزّي العربيّ وارتدائها الجينز، ومحاولتها كسر نمطيّة الحياة المنزليّة بتناول الطّعام في المطاعم، معتبرًا مثل هذه الخيارات أنّها من «أفعال الخواجات» الّتي لا تليق بمنتمٍ للشّرق وحضارته[٥٣]. ومع ذلك، لا يرى غضاضة في خيانة كلّ منهما لزوجه، وارتباطهما بعلاقة غير مشروعة أسفرت عن حملٍ سفاح.

هكذا يكرّس «نديم» مفهوم الانتماء القائم على الشّكل دون المضمون، متجاهلًا القيم والمبادئ التي تشكّل روح الحضارة. ومن جهة أُخرى، تبرز «جنون اليأس» صورة العربيّ المتآمر على حضارته من خلال السّلوكيّات التي تعزّز صورة رجعيّة وسلبيّة عن الثّقافة العربيّة في أَذهان الآخرين، سواء العرب أنفسهم أو الغرب. فـ«نديم»، رغم إدراكه لإرث الحضارة العربيّة وإسهاماتها في العلوم الإنسانيّة، ينشغل بهمٍّ وحيد يتمثّل في «المرأة» بوصفها غواية لجميع فئات المجتمع العربيّ، من المثقّفين إلى الجهلاء[٥٤]، تقلب موازين حياتهم رأسًا على عقب؛ وهو منظور يعزّز الصّورة النّمطيّة السّلبيّة عن الرّجل العربيّ في المخيّلة الغربيّة.

أمّا شخصيّة «مليحة»، فتمثّل الحضارة العربيّة من جهة، والتّآمر عليها من جهةٍ أُخرى. فقد رُسمت رمزيّتها للشّرق من خلال ارتباطها بـ«نديم» واحتفاظها بملامح ثقافيّة تقليديّة، لكنّها في ذات الوقت تجسد التّآمر على الشّرق من خلال سرقتها

(٥٢) نفسه، ص.٨١.
(٥٣) نفسه، ص.١٤٤.
(٥٤) نفسه، ص.١٩٦.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

المنحوتات والمقتنيات الأثريّة التي كان «نديم» يجمعها، وبيعها بأسعار زهيدة في شوارع «لندن». وتمثّل المقتنيات رمزاً لتمسك المهاجرين بجذورهم الحضاريّة، إذ كان نديم يقتنيها بحبٍّ بالغ، ويتأسّف أنّها سُرقت وهُرّبت إلى الغرب. غير أن «مليحة»، التي أُصيبت بخللٍ ذهنيّ في نهاية الرّواية، خرّبت هذا التّراث بنفسها بسرقته وبيعه؛ ممّا أتاح للأجنبيّ امتلاك كنوز الشّرق مجدّدًا بأبخس الأثمان؛ إذ أقبل المارّة، وعلى رأسهم الإنجليزيّ «شارلي»، لشراء هذه القطع منها دون أن تُدرك قيمتها.

يتعزّز معنى التّآمر على الحضارة العربيّة من خلال استغلال الآخر الأَجنبيّ حالة الانهيار النّفسيّ والضّعف الذي أصاب الذّات العربيّة؛ فتتعرّض «مليحة» للاستغلال الجنسيّ أثناء رحلتها لبيع المقتنيات، في مشهدٍ يعكس انتهاكًا لأخصّ ما يمثّل «شرفًا مصونًا» في الثّقافة العربيّة. ومع كلّ هذا، لا تقدّم الرّواية أيّ أمل في استعادة الهويّة أو إعادة إحياء الحضارة، إذ تظهر الأجيال الجديدة مكرّرة ذات نموذج الهويّة المأزومة؛ وهي فكرة برزت من خلال شخصيّة الابن غير الشّرعي لـ«نديم» من «مليحة»، الذي ورث عن والده تفوّقه الأكاديميّ في الطّب، لكنّه في الوقت ذاته لم يكن سوى انعكاس لحياة والده المضطربة.

ويستمرّ هذا التّناول لمسألة التّآمر على الحضارة في روايات أُخرى مثل «ظلّ هيرمافروديتوس» و«أصابع مريم»، حيث يتجلّى التّآمر في استغلال الوطن ونهب مقدّراته؛ فالتّآمر على الوطن هو تآمر على الحضارة، والعكس صحيح، إذ أنّ انهيار أَحدهما يؤدّي ضرورة إلى ضعف الآخر. ففي «أصابع مريم»، تبرز صورة الوطن الذي يحرم أبناءه من حقوقهم الأساسيّة؛ مما يدفعهم إلى الفوضى والضّياع النّفسيّ، بينما تكون السّلطة متآمرًا حقيقيًّا على الوطن والحضارة؛ عن طريق اختزالها في شخصيّات عديمة الكفاءة همّها الوحيد الوجاهة الاجتماعيّة.

وتبرز في «كارما الذّئب» مواقف تمسّك الشّخصيّات بالوطن رغم الإحباطات والخيبات التي تواجهها. فشخصيّة «سلّام» درست وعاشت في أَمريكا، ثمّ اختارت العودة إلى الوطن لإنشاء مركز للفيزياء النّوويّة، رغم تحذير الآخرين له من سذاجة هذا القرار. وبالفعل، بعد عودته، وجد نفسه مكبّلاً بالبيروقراطيّة والمهمّات الإداريّة العقيمة، ما جعله يصفُ عودتَه بـ«خيبة الأمل»، قبل أن يقرّر العودة مجدّدًا إلى أمريكا

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

في إجازة بحثية. ورغم انتماء الشّخصيّة للوطن، فإنّ تمثيله للهويّة العربيّة لم يكن نقيًّا، إذ تجسّد في شخصه النّموذج التّقليديّ للرّجل العربيّ المنجذب للعلاقات العاطفيّة العابرة، وتأثّر بالغرب تأثّرًا واضحًا في هيأته وسلوكه ظنّ إثرهما سائق التّاكسي في المطار أنّه أجنبيّ، وتعمّق التّشظّي بين التّمسك بهويته وانسلاخه منها من وصفه نساء قريته بعد عودته بعبارات تعكس نظرة دونيّة كاشفة عن تناقضه بين تعلّقه الظاهر بوطنه، وعمق تأثّره بالمجتمع الغربيّ ما يشفّ عن مأزق في هويّة الشّخصيّة.

وفي الرّواية ذاتها، نجد شخصيّة «حميدة» تتشبّث بالحياة في «لندن» رغم زعمها حبّها لوطنها، وترى أنّ حياتها الجديدة أكثر راحة وسهولة، بل وتفتخر بأنّ أبناءَها باتوا أشبه بالإنجليز، ممّا يجسّد حالة الانفصال عن الهويّة والانسلاخ التّدريجيّ عنها.

وفي النّهاية، تعكس «كارما الذّئب» نتائج التّضييق الذي يفرضه الوطن على أبنائه، إذ لا يجدون أمامهم سوى الهجرة، أو العيش في صراع بين الانتماء والاستلاب، أو اللّجوء إلى العنف. وقد تجسّد ذلك في الرّواية عبر ثلاث صور: هجرة «حميدة» و«سلّام» إلى «لندن» و«أمريكا»، ومعاناتهما من أزمة هويّة، وانفجار اليأس في صورة أعمال عنفٍ؛ إذ أقدم شبّان عاطلون عن العمل في مجتمع المحكيّ على خطف سفينة سياحيّة لإجبار المسؤولين على توفير الوظائف، ليُعقّب السّارد على هذا الحدث قائلًا: «قد يصنع اليأس جنونًا لا نفهمه نحن حتى نعيشه»[٥٥].

وهكذا، تُظهر هذه الرّوايات كيف أن الذّات العربيّة تقف في مواجهة أَزمتها الحضاريّة بين التّمسك بالمظاهر الخارجيّة لهويّتها وانتمائها الحضاريّ، وبين التّخلّي عن جوهرها، ممّا يضعها في دوامة لا تنتهي من الضّياع والتّآمر الذّاتيّ الذي يعمّق من أبعاد أزمتها الوجوديّة.

٦. الأنا والخرافة:

قد تلجأ الذات المأزومة حضاريًّا إلى الشعوذة والخرافة بوصفهما آليّات دفاعيّة بديلة لمواجهة تحدّيات الواقع. ويعكس هذا الانكفاء على الوسائل اللّاعقلانيّة حالة من الانهيار الدّاخلي للذّات والاستسلام القسري له؛ إذ تغدو الخرافة ملاذًا أَخيرًا في مواجهة

[٥٥] كارما الذئب، ص.١٢٤.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

واقع لا يُحتمل[٥٦].

ومن بين التّمثيلات البارزة للأنا العربيّ في مدوّنة الدّراسة علاقته بالدّجل والخرافة والشّعوذة للتّمويه عن عجزه وفشله في التّعامل مع الواقع؛ إذ تُحاكي هذه التّمثيلات صورةً معقّدة عن الفشل في إيجاد حلول واقعيّة لمعضلات الحياة، وتُعكس عجز الذّات عن التّأقلم مع المشاكل الحياتيّة في سياقات متعدّدة؛ سواء كانت صحيّة، أو اجتماعيّة، أو نفسيّة.

ومن ذلك ظهور الأنا العربيّ في رواية «نارنجة» في صورة عاجزة عن مواجهة المشاكل الصّحيّة التي تواجهه وعليه يلجأ إلى الخرافات سبيلًا للعلاج؛ فحين أصيبت الجدّة بالرّمد عالجها بـ«أعشاب الجهل» والتّخلّف[٥٧]؛ ما أفقدها بصرها، ثمّ مضتْ عمرها تحلم بالسّفر للعلاج واستعادة بصرها، لكنّها مُنعت من السّفر، ثمّ حين تيسّر لها طلب العلاج من الطّبيب الإنجليزيّ «طومس» صُدمت بحقيقة قاسية هي أنّ العلاج لن يستعيد بصرها بالكامل؛ مما يُظهر الفجوة بين الحلول السّطحيّة والعلاج الفعّال. هذه الواقعة تعكس بشكل رمزيّ تراجع الأنا العربيّ في مواجهة تحدّياته الصّحيّة وكيف يتخلّى عن الاعتماد على العلم لصالح الخرافات.

وفي سياق مشابه، تقدّم رواية «ظلّ هيرمافروديتوس» تمثيلًا آخر للأنا العربيّ الذي يواجه مأزقًا ثقافيًّا واجتماعيًّا بسبب الظّروف الاستثنائيّة التي يعجز المجتمع عن تفسيرها أو تقبّلها. ففي هذه الرّواية، تجد «سعاد» نفسها في حالة عجز عن البُكاء بخلاف بقيّة الأطفال، ما يثير قلق والديها وتنمّر المجتمع عليها بنعتها بـ«الجنيّة». وهنا، يُعتمد على «امرأة مسنّة» لتعمل لها «حجابًا» لعلاجها[٥٨]؛ ما يعكس الاتجاه نحو الحلول الرّوحانيّة غير المجدية. وعندما تُكتشف حالة «سعاد» كحالة غير تقليديّة من حيث هويّتها الجسديّة، يُلجأ إلى «دجّال» آخر يعرض تفسيرًا غريبًا، قائلاً عن صحة الابنة: «محد سلم من نغزة الشيطان غير مريم بنت عمران وولدها عيسى، وبنتك»[٥٩]،

---

[٥٦] مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، سابق، ص.١٣٩.

[٥٧] نارنجة، ص.١٠٩.

[٥٨] ظل هيرمافروديتوس، ص.١٣.

[٥٩] نفسه، ص.٩.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

ثمّ ينعتها ساخرًا إنّها قد تكون «المسيح الدجّال»[٦٠]؛ مُتبعًا بذلك تفسيرًا شعبيا يعكس انعدام الفهم العلميّ لمرضها. ومع ذلك يدعي قدرته على علاجها، فيزودهم بوصفة علاجيّة بعد أنْ وصل إلى أنّ عينًا أصابتها، ويغلّف وصفته بغلاف الدّين إذ نصحها بتلاوة آيات بعينها في أوقات بعينها بأعداد معيّنة، وينصحها بالتزام الدوران حول البيت سبع مرّات عكس عقارب السّاعة، والجري من البيت إلى المسجد سبع مرّات، وحين لم يؤتِ طبّه نتيجة أرجع السبب إلى احتمال عدم التزامها التّام بوصفته العلاجيّة[٦١] ويسانده الأهل بتصديقهم موقفه؛ وهي إشارات واضحة إلى التّمسك بالحلول الميتافيزيقية رغم عدم فعاليتها.

ويتعاملُ الأب مع مرض ابنته في «ظلّ هيرمافرديتوس» كـ«فضيحة» قد تسيء إلى شرف العائلة، تقول «سعاد» السّاردة: «يتعامل أبي مع الأمر كفضيحة قد تطال شرفه»[٦٢]، مما يعكس المنظور الاجتماعيّ السّلبيّ تجاه الحالات التي لا تنسجم مع المألوف؛ إذ يُعتقد أنّ المرض النّفسيّ أو الجسديّ يجب أن يُخْفَي أو يُعالَج بطريقة تتوافق مع ذهنيّة المجتمع وطريقة تفكيره، وعليه يميل الأبُ إلى اللّجوء إلى الدّجّالين لحلّ مشكلة ابنته الصّحيّة. ورغم أنّ «سعاد» تصبح لاحقًا ممرضة، فإنّها تُواجه استهجانًا كبيرًا تجاه أيّ علاج نفسيّ؛ ذلك لأنّ «المرض النفسي حتى مع متعلمينا يعني عيبًا ما ونقصًا بشخصك»[٦٣] – كما تقول؛ ممّا يعكس ربط الوعي المجتمعيّ الصّحة النّفسيّة بالعزلة الاجتماعيّة أو العيب.

تتكرّر صورة العلاج بالخرافة والشّعوذة في «كارما الذّئب»، عندما يُصاب «نبيل» بالصّرع؛ إذ ينعته النّاس بالجنّي، ويقولون عنه بأنّ جنيًّا «توطّنه»[٦٤]، ويُمنعون أطفالهم من الاقتراب منه خوفًا من أن يصيبهم بـ«جنّه وشياطينه». وبهذا تجسّد هذه الصّورة ردود الفعل الشّعبيّة تجاه المرض العقليّ أو الجسديّ في المجتمع المسرود؛ إذ لا يكون المرض جزءًا من الواقع الطّبيّ الذي يمكن فهمه أو معالجته

(٦٠) نفسه، ص.١٠.
(٦١) نفسه، ص.ص.١٨- ١٩
(٦٢) نفسه، ص.٢٢.
(٦٣) نفسه، ص.١١٧.
(٦٤) كارما الذئب، ص.١٤.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

بأساليب علميّة، بل يُربط بخرافات وأفكار ميتافيزيقيّة.

وتؤكّد هذه الفكرة ما تتبنّاه الدّراسات الاجتماعيّة والنّفسيّة من استيلاء الخرافة في المجتمعات المتأزّمة على وعي الفرد بفعل نكوصٍ نفسيّ يعاني منه المقهور؛ الأمر الذي يعيده إلى تفكير طفوليّ يخلط الحقائق بالأوهام والرّغبات، ويجعله أسيرًا لذاتيّته ويُمارس بدوره تسلّطًا فكريًّا وسلوكيًّا على الضّعفاء[٦٥].

هكذا تُظهر مدوّنة الدّراسة حالة من التّهقهقر الفكريّ والاجتماعيّ أَمام تحدّيات الصّحة النّفسيّة والجسديّة، الأمر الذي يعكس رفضًا متأصّلًا للاعتراف بالحلول العلميّة الحديثة. في هذه الأَمثلة المذكورة أَعلاه، تظلّ الخرافة والشّعوذة الخيار الأمثل في مواجهة المجهول، ويظلّ الأنا العربيّ عاجزًا عن تبنّي مسالك علميّة في فهم الواقع والتّعامل مع مشكلاته الصّحيّة والنّفسيّة والواقعيّة المختلفة؛ ممّا يعكس استمرار تأثير الموروثات الرّجعيّة على نظرة الأَنا إلى العالم وفهمه. فماذا عن أبرز أنماط تمثيلات الآخر الأجنبيّ في مدوّنة الدّراسة؟

ثالثًا: تمثيلات الآخر الأجنبيّ

تتنوّع تمثيلات «الأجنبيّ» في الرّواية النّسوية العُمانيّة مدوّنة الدّراسة، إذ ظهر بوصفه عنصرًا دالًا على الآخر المختلف ثقافيًّا وتاريخيًّا، وقد اتّخذ هذا التمثيل أشكالًا متعدّدة تراوحت بين النّظرة العنصريّة، وصورة المستعمِر، وتجسيد المتحضّر المتفوق، وصولًا إلى تمثيله جسدًا فاتنًا، مشتهًى ومثيرًا للفضول والرّغبة. تكشف هذه التّمثيلات تعقيد العلاقة التي تربط الذّات العربيّة/ العُمانيّة بالآخر الغربيّ، كما تعكس الصّراعات الدّفينة بين الطّرفين. ويبدو أن مدوّنة الدّراسة لم تتعامل مع «الأجنبيّ» بوصفه مجرّد شخصيّة هامشيّة أو محايدة، بل حمّلته دلالات رمزيّة مرتبطة بإرث الاستعمار، وسرديات التّفوّق الحضاريّ، فضلًا عن إسقاطات حسيّة وجسديّة تعبّر عن تصوّرات مشوّشة ومتناقضة تتقلّب بين كونه تهديدًا للهويّة من جهة، ومصدرًا للفتنة والانبهار من جهة أخرى، ما يجعل حضوره في السّرد محفوفًا بدلالات مزدوجة

[٦٥] انظر مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، سابق، ص.١٤٠-١٤١.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

تتراوح بين الإدانة والانجذاب.

وعليه، فإنّ تمثيلات الأجنبيّ في هذه المدوّنة لا تقتصر على البُعد السّياسيّ أو الاجتماعيّ، بل تمتدّ إلى العمق النّفسيّ والثّقافي، كاشفة عن أنماط من التّوتّر والخوف والافتتان، ومعبّرة عن علاقة غير متكافئة ومحمّلة بتاريخ من الهيمنة والمقاومة بين الطّرفين.

وفي هذا السّياق، نتناول الأنماط البارزة لتمثيل الأجنبيّ كما تجلّت في الرّوايات محلّ الدّراسة، ونعرضها فيما يلي:

١. الآخر عنصريًّا

تفاوتت معالجات المدّونة في تصوير الآخر الأجنبيّ من منظور عنصريّ؛ إذ ركزت بعض النّماذج على إبراز الأجنبيّ في صورة متعالية ينظر إلى العرب بدونيّة، بينما قدّمت نماذج أُخرى صورة معاكسة تمامًا، حيث يظهر الأجنبيّ متسامحًا، لا يميّز بين العربيّ والغربي.

تبرز رواية «جنون اليأس» بوصفها إحدى أكثر الأعمال إلحاحًا على إبراز عنصريّة الأجنبيّ، ويتجلّى ذلك من خلال رفض الأُم الإنجليزيّة "مورين" الاعتراف بأبوة «نديم» العربيّ لأطفاله، مُصرّة على نسبتهم لعائلتها، وهو موقف يكشف نزعةً عنصريةً واضحة يحملها الأجنبيّ تجاه العربيّ. ومن المشاهد الرّمزيّة الدّالّة على هذه العنصريّة، نفور كلب مرافِق لامرأة إنجليزيّة من «نافع» لمجرد اقترابه منه، دون أيّ سببٍ آخر ظاهرٍ، وهو موقف يعكسُ القطيعة الحادّة بين الطّرفين. الأدهى من ذلك، أنّ صاحبة الكلب لم تعتذر، بل سارعت بالهرب مع كلابها، خشية المساءلة القانونيّة، في إشارة إلى استمراريّة الفجوة بين الثّقافتين، ونزعة فوقيّة الأجنبيّ ضدّ العربيّ.

وفي المقابل، لا يقتصر سبب النّفور بين الطّرفين على الأجنبيّ فحسب، بل يقابله نفور مماثل من العربيّ نفسه، إذ ظلّ «نديم» متحفّظًا تجاه أطعمة زوجته الإنجليزيّة، متذمّرًا من افتقارها إلى النّكهات الشّرقيّة المألوفة لديه. كما أبدى استياءه من تحوّل شخصيّة «مورين» بعد الزّواج من امرأة متسامحة إلى شخصيّة متعجرفة متشدّدة، وهو ما يعكس تأثير الفروقات الثّقافيّة والاجتماعيّة في توسيع الهوّة بين الأنا والآخر.

إضافة إلى ذلك، يعاني العربيّ من هيمنة الأجنبيّ وممارسته نوعًا من الاستعلاء

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

عليه، ويتجلّى ذلك في طرد «نديم» من غرفته بقرار من زوجته الإنجليزيّة، وهو موقف يعزّز فكرة التّهميش الذي يعاني منه العربيّ في ظلّ علاقاته المتوتّرة مع الآخر الغربيّ، وقد عبرت الرّواية عن هذه الفكرة من خلال سرد فشل «نديم» في اختبار إعادة تشكيل صورة العربيّ، وعجزه عن تقديم نفسه بوصفه ندًا إنسانيًّا وحضاريًّا للآخر العربيّ؛ فكان طبيعيًّا أنْ تتجسّد هذه العنصريّة في عزله؛ إذ بات محاصرًا داخل غرفته الضيّقة بين الكتب والأعمال الأدبيّة العربيّة، بينما يستمع لأغاني أمّ كلثوم وسيّد درويش؛ في تعبير عن محاولته البقاء متّصلًا بهويّته.

تتجاوز العنصريّة الغربيّة الأفراد لتنعكس في تخطيط المدن، إذ تعكس أحياء لندن في «جنون اليأس» طبقيّة واضحة مرتبطة بأصول السكّان ومستوياتهم الاجتماعيّة. يظهر ذلك من خلال انتقال «مليحة» من «فندق المهاجرين» إلى شقّة متواضعة في «شبرد بوش»، ثمّ انبهارها بثراء الأحياء التي يسكنها الإنجليز، ممّا يعكس التّفاوت الصّارخ في مستوى المعيشة بين السكّان الأصليّين والمهاجرين. كما تجسّد الرّواية بدقّة الفجوة بين الطّبقات الاجتماعيّة في المجتمع الغربيّ، إذ تعيش الطّبقات الغنيّة في عزلة عن بقيّة الفئات الفقيرة.

وتمتدّ هذه العنصريّة إلى نظرة الإنجليز للمهاجرين، إذ يعبّر بعضهم عن استيائهم من استحواذ الأجانب على ممتلكات وثروات يرون أنّهم أحقّ بها من غيرهم، كما عبّر أحد الإنجليز لـ «نافع» عن دهشته من كون العربيّ يعيش في منزلٍ فخم بحديقة، وهو ما يعكس استنكارًا ضمنيًا لامتلاك المهاجرين سبل الرّفاهية والعيش الكريم في البلد الجديد.

في المقابل، تسعى بعض الرّوايات ضمن المدوّنة إلى تقديم صورة مختلفة عن الأجنبيّ، كما في «ظلّ هيرمافرديتوس» التي تصوّر الآخر الغربيّ على أنّه متسامح ومنفتح. يظهر ذلك من خلال العلاقة بين «سعاد» العُمانيّة والأمريكيّة التي استضافتها في منزلها وجعلتها فردًا من عائلتها، وكذلك زواج «أوليفيا» الأمريكيّة من «ناصر» العُمانيّ، رغم اختلاف ديانتهما، وتقبّلها لثقافته إلى حدّ اختيار اسم عربيّ لابنهما، ما يعكس إمكانيّة التّقارب بين الثّقافات.

وتُبرز الرّواية ذاتها دور الأجنبيّ في تفهّم ودعم الأفراد المختلفين، إذ كان

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الأمريكيّون وحدهم من تفهّموا معاناة «سعاد» المرضيّة، ولم يوصموها بالشّذوذ كما فعل مجتمعها العربيّ. وبذلك، تتجاوز الرّواية الصُّورة النّمطيّة للأجنبيّ العنصريّ، وتُبرز جانبًا أكثر تقبلًا للاختلاف بين الأنا والآخر.

وتتناول رواية «كارما الذئب» العلاقة بين الأمريكي «بيتر» والعُماني «سلام»، ورغم عنايتها بإبراز الودّ والانسجام بين الطّرفين، فإنّها تتضمن أيضًا إشارات إلى عنصريّة الأجنبيّ ضدّ أيّ مختلفٍ عنه، كما في اقتراح «بيتر» على «سلام» زواج من أمريكية، مستخدمًا توصيفات تمثّل تمييزًا عنصريًّا.

تسلّط الرّواية ذاتها الضّوء - في منحى مشابه- على تجربة «حميدة» في لندن، وما واجهته من نظرات الرّيبة والحذر من المجتمع الغربيّ بسبب ارتدائها لباسٍ يشفّ عن هويّتها العربيّة والدّينيّة، لتضطرّ أخيرًا التّخلي عن هذا الجزء الظّاهر من هويّتها للاندماج في الثّقافة الغربيّة، ما يعكس الضّغوط التي يمارسها الغرب على القادمين من مجتمعات مختلفة.

هكذا، تعكس المدوّنة تنوّع تمثيلات الأنا للآخر الأجنبيّ، بين تقديمه في صورة عنصريّة متعالية، وبين إبرازه طرفًا متسامحًا قادرًا على مدّ جسور التّواصل، ممّا يعكس تباين الرُّؤى بشأن طبيعة العلاقة بين الشّرق والغرب.

٢. الآخر مستعمرًا

مثّل الآخر الأجنبيّ في مدوّنة الدّراسة قوّة استعماريّة مهيمنة تتّخذ صورًا متعدّدة، تتجلّى في العلاقة بين الشّخصيّات العربيّة والغربيّة؛ إذ ظهر الغربيّ بوصفه داعمًا في بداية علاقته بالعربيّ لكنّه غالبًا ما يستغلّ هذا الدّعم لفرض هيمنته. تعبّر رواية «جنون اليأس» عن هذه الهيمنة من خلال شخصيّة الإنجليزيّة «مورين» التي كانت عاملًا مساعدًا في نجاح «نديم نصرة»؛ إذ تولّت «تدبّر أمور حياته وحياة أولاده وشؤون المنزل، بينما ينصبّ اهتمامه على الكسب المادي»[٦٦]، مما سمح له بالتّركيز على الكسب الماديّ والنّجاح في عمله. لكن هذا الدّعم لم يكن خالصًا، بل استحال لاحقًا إلى وسيلة سيطرة على الأسرة، إذ أصّرت «مورين» على أن يحمل الأبناء اسم عائلتها

[٦٦] جنون اليأس، ص.١٢.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

ورفضت أيّ صلة لهم بهويّة والدهم وثقافته العربيّة. تقول له «بعنجهيّة»: «سمر وأيمن سيحملان اسم عائلتي المعرّفة بعائلة داكوارث»[٦٧]. لقد استندت «مورين» عمومًا في علاقتها بـ«نديم» إلى فكرة تفوّق الغرب، مذكّرةً زوجها العربيّ بأنّه في إنجلترا، ويتوجب عليه الامتثال لقوانينها[٦٨]، مهدّدةً إياه بالطّرد وحرمانه من أبنائه، ممّا حوله إلى كائن معزولٍ في منزله، يعيش كالسّجين.

يقول نديم: «البيت الذي أسكن فيه هو بمثابة مملكة خاصّة لزوجتي، تضع فيه ما تختاره هي من أثاث على النمط الإنجليزي، وهو خالٍ تمامًا من أي نكهة عربية»[٦٩]، ثم تطوّر الأمر بأن عزلته «مورين» في غرفة الغسيل «التي تقع في الركن البعيد من أركان حديقة المنزل في مكان يشبه حظيرة الحيوانات الأليفة، يأكل ويشرب وينام بحيث لا يشعرون بوجوده»[٧٠]؛ في إشارة إلى إقصائه وتهميش دوره الأسريّ.

وفي السّياق ذاته، تظهر شخصيّة الإنجليزيّة «جوليا» كمثالٍ آخر لاستغلال الآخر الأجنبيّ لعلاقته بالعربيّ في الرّواية ذاتها. فقد استضافت «نديم» في بداياته في «لندن»، وساعدته في تعلم الإنجليزية، لكنّها اعتبرت ابتعاده عنها لاحقًا خيانةً لها، مما يعكس شعورًا بالتّملك والهيمنة على مصيره. هذا الإحساس بالسّيطرة يظهر مجددًا في شخصيّة «شارلي»، الذي يتجسّد في صورة المستعمر المتربّص، مستغلًا كلّ فرصة للهيمنة على الشرق ونهب مقتنياته الأثريّة. يتبدّى ذلك في محاولته الاستيلاء على الآثار والمقتنيات الشّرقيّة التي سرقتِها «مليحة» وعرضتها للبيع، متعاملًا مع «مليحة» بتعالٍ وتحكم، ليصل الأمر إلى قتله «نديم»؛ في إشارة واضحة إلى استمرار إخضاع الشّرق لهيمنة الآخر الغربيّ وجبروته، ودور الشّرق نفسه في التّواطؤ ضدّ حضارته وتفريطه في مكتسباته وإرثه التاريخيّ لأسباب منها الجهل والجشع.

يسعى الغربيّ في منظور العربيّ لفرض هويّته على العربيّ، ومن ذلك أنّه وراء فرض سروايل الجينز كموضة على شعوب العالم، و«بكلّ أسف قَبِلها النّاس دون تفكير ومراجعة»[٧١]. وحين أرادت «مليحة» أنْ تغيّر ملابسها إلى هذا الشّكل الجديد رفض

---

[٦٧] نفسه، ص.٢١٨.
[٦٨] نفسه، ص.٢١٨.
[٦٩] نفسه، ص.- ص.٨٠-٨١.
[٧٠] نفسه، ص.١٤٠.
[٧١] نفسه، ص. ١٣٤.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

«نديم» الأمر، واعتبر رغبتها انجرارًا لهيمنة الغرب على الشّرق، واستعماره عقول أبنائه، وزعزعة تمسّكهم بقيمهم وثقافتهم وهويّتهم.

ويمتدّ هذا الاستعمار إلى بُعد دينيّ في رواية «نارنجة»؛ إذ تستغل زوجة الطّبيب الإنجليزيّ «طومس» ضعف المجتمع وجهله بمحاولتها فرض معتقدها الدّينيّ على المرضى المرتادين مستشفى زوجها في مطرح؛ فتمنح الجدّة العربيّة نسخة من الإنجيل، وبسبب عدم إلمام الجدّة بالقراءة، بقي الكتاب مخفيًّا بين مقتنياتها حتّى بعد وفاتها، لتجده «زهور» لاحقًا وبداخله بطاقة كُتبت عليها عبارة: «مخافة الربّ بداية الحكمة»[٧٢]؛ ما يشير إلى اختراق ثقافيّ دينيّ في محاولة لاستبدال هويّة الآخر بهويّة المستعمِر.

وفي رواية «أصابع مريم»، تتّخذ العلاقة بين الشّرق والغرب شكلًا أكثر تعقيدًا؛ إذ يعبّر «حمد» عن انبهاره بالحضارة الغربيّة، ويرى أنّ المرأة في الغرب حازت حقوقَها بخلاف المرأة العربيّة التي يراها مضطهدة بسبب الدّين والعادات. في المقابل، ترفض «مريم» هذه الفكرة، وترى فيها امتدادًا لهيمنة الغرب على أفكار الشّرق وتوظيفها وسيلةً لتفكيك الأسرة العربيّة كما حدث في المجتمعات الغربيّة التي فقدت تماسكها الاجتماعيّ بسبب «مذبح النفعيّة العلماني»[٧٣]. يعزّز المحكيّ هذا الطّرح من خلال مشهد تخلّي «حمد» عن دينه، وتقاليده، وزيّه العُمانيّ لصالح قيمٍ دخيلة، وملابس غربيّة، وهو ما تراه زوجته دلالة على فقدان الهوية والانتماء[٧٤].

تظهر هذه الهيمنة الثّقافيّة في شتّى مناحي الحياة، من التّربية الأسريّة إلى تفاصيل الحياة اليوميّة، إذ يعتمد الأب «حمد» على الأساطير الغربيّة في توجيه بناته، مستحضرًا قصّة «سكيلا» الإغريقية[٧٥]، بما يعكس تبعيّته الفكريّة للغرب وموروثه الفكريّ، في حين تعيش أُسرته في صراع بين التّمسك بهويّتها العربيّة وانسياقها خلف ثقافة الآخر التي يروّج لها الأب. كما يظهر أثر الاستعمار الثّقافيّ في تبنّي الشّخصيّات للأدب الغربيّ في التّعبير عن معاناتهم، سواء عبر الاستشهاد بالشّعر الإنجليزيّ

---

[٧٢] نارنجة، ص. ٩٨.

[٧٣] أصابع مريم، ص.٢٦.

[٧٤] نفسه، ص.٧٣.

[٧٥] نفسه، ص.-ص.١٣٠-١٣١.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

والفرنسيّ[٧٦]، أو من خلال مشاهدة المسلسلات الأجنبيّة[٧٧] كمؤشّر على التّحضر.

وفي «كارما الذّئب» مثّل الآخر مستعمرًا ومهيمنًا من خلال محاولته محو غيره ثقافيًّا وفرض أَنماطه الحياتيّة وقيمه الاستهلاكيّة؛ إذ تغلغلت هذه الهيمنة في التّفاصيل اليوميّة لحياة الشّخصيّات، ما يعكس عمق تأثير الثّقافة الغربيّة على الأفراد المهاجرين. فقد فرض الآخر المستعمر ماركاته الباهظة الثّمن، وطابع حياته اليوميّة؛ ومن ذلك أنْ لجأ «سلام» إلى التّركيز على وصف الملابس الفاخرة التي ترتديها «حميدة» حين صادفها في أَمريكا، إذ أصبحت مظهرًا أساسًا من مظاهر هويّتها الجديدة. فحقائبها من ماركة دولتشي أند جابانا، وتسوّقها من متاجر الففث أفنيو الرّاقية، وشربها ماء إفيان المستورد، وشراؤها أسهمًا في أسواق البورصة العالميّة، كلّها تجلّيات لهذا التّماهي مع الثّقافة الاستهلاكيّة الغربيّة، إلى جانب تحدّثها الإنجليزيّة بطلاقة، واعتمادها على التّسوق عبر الإنترنت، ممّا يعكس محاولة محو ماضيها واندماجها القسريّ في بيئة الآخر المستعمِر.

ورغم هذا الاندماج في المجتمع الغربيّ، تبدو «حميدة» غير راضية تمامًا عن نمط الحياة الجديد؛ تقول لـ«سلام» مثلًا: «العالم صار معزولاً حتى في بيوتنا. أولادي يمسكون تلفوناتهم المحمولة في الصالة وبالكاد نلقى وقت نتكلم. يلعبون بالحاسوب أو بألعاب الفيديو ولا يتكلمون...» [٧٨]، وهذا التّصريح يعكس المفارقة بين الحلم بالرّفاهية الغربيّة والواقع الاجتماعيّ القاسي الذي فرضته تلك الثّقافة، إذ تحوّل طابع حياتها من البساطة والاندماج بعد انتقالها من الجبل إلى «لندن»، إلى مظهرٍ جديد لم تألْفه متمثّلًا في العزلة؛ بوصفها إحدى سمات الحياة الغربيّة التي جعلتها تشعر بانفصال تدريجيّ عن ذاتها الأصليّة وهويّتها السّابقة.

لم تقتصر هيمنة الأجنبيّ على «حميدة» وحدها، بل امتدّت إلى أبنائها، الذين كانوا أسرع خضوعًا للآخر واندماجًا في ثقافته، فتبنّوا نمط حياة مختلفًا تمامًا عن الذي عاشوه في سنّيّ حياتهم المبكّرة. ومن مظاهر هذا الاندماج أنّهم أتقنوا الإنجليزيّة، وتبنُّوا الموسيقى الغربيّة، وتطوّرت علاقاتهم الاجتماعيّة لتشمل أصدقاء أجانب، ممّا جعلهم

[٧٦] نفسه، مثلا: ص.١٣٧، و ص.١٦٩.
[٧٧] نفسه، مثلًا: ص.٧٥.
[٧٨] كارما الذئب، ص.١١٣.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

جزءًا لا يتجزّأ من النّسيج الثّقافيّ الغربيّ؛ وهو ما يعكس سرعة تأثّر الجيل الجديد بالثّقافة الاستعماريّة دون وعي كافٍ بأبعاد هذا التّأثير.

وفي هذا السّياق، يبرز دور التّاجر «أبي عمر» الذي خبر حياة «لندن» طويلًا قبل زواجه من «حميدة» فنصح زوجته قائلاً: «إذا أردتي أن تعيشي في لندن مثل الانجليز احترمي ثقافتهم»[٧٩]، وهي نصيحة تحمل في طيّاتها دعوة إلى الاندماج الكامل في ثقافة الآخر، وفي الوقت ذاته تعكس استسلامًا صريحًا للآخر، وكأنّ الهويّة الأصليّة لم تعد قابلة للحفاظ عليها في ظل النّظام الثّقافيّ الغربيّ المسيطر. إنّ هذا الاستعمار الثّقافيّ لم يفرض نفسه بالقوّة فقط وعلى نحوٍ مباشر، بل تسلّل عبر القيم الاقتصاديّة والاجتماعيّة والأنماط الاستهلاكيّة، إذ يصبح الاندماج مع ثقافة الآخر ليس مجرّد خيار، بل شرطًا للبقاء والنّجاح في المجتمع الجديد.

هكذا تقدّم «كارما الذئب» نموذجًا متكاملًا للاستعمار الثّقافيّ الحديث، لم تعد الهيمنة الاستعماريّة تقتصر فيه على الاحتلال العسكريّ أو الاستغلال الاقتصاديّ المباشر، بل باتت تتمثّل في سيطرة نمط الحياة الغربيّ على الأفراد، حتّى في تفاصيل حياتهم اليوميّة، من الملابس والطّعام والتّكنولوجيا، وصولًا إلى القيم والمعتقدات والعلاقات الأُسريّة، وهو ما يجعلُ هذا الشّكل من الاستعمار أكثر تعقيدًا وأعمق أثرًا على الهويّة الفرديّة والجماعيّة.

تعكس هذه الرّوايات، إذن، صراعَ الهويّات بين الانبهار بالغرب والتّمسك بالجذور؛ تمثّل الشّخصيّات العربيّة محاولات متفاوتة للتّعامل مع هذه الهيمنة، فمنهم من يستسلم تمامًا لها، ومنهم من يحاول مقاومتها دون نجاحٍ كامل، وكلّ هذا يرسّخ الآخر الأجنبيّ بوصفه قوّة استعماريّة مؤثّرة على وعي الشّرق وهويّته.

٣. الأحلام والفرص

يتشكّل تصور الذّات عن الآخر الأجنبيّ تاريخيًّا، ولكنّه يستند أيضًا إلى أنماط إنسانيّة أصلية وعابرة للزّمن، وهي أساس مخيالنا الإنسانيّ إزاء الآخر[٨٠]. ومن هذا،

---

[٧٩] نفسه، ص.٢١٨.

[٨٠] أسماء العريف بياتريكس، الآخر أو الجانب الملعون، ضمن كتاب: صورة الآخر: العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، تح. الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط.١، ١٩٩٩، ص.٩٠.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

فإنّ صورة الآخر الأجنبيّ في وعينا ولا وعينا ترسّخت بفعل حقب الاستعمار بين الشّرق والغرب، وليست وليدة اللّحظة.

تظهر هذه الفكرة في الأعمال الرّوائيّة المدروسة من خلال تقديم صورة الآخر الغربيّ محورًا رئيسًا ساهمت في تشكيلها جملة من الأحداث والتّصوارات التّاريخيّة والتّجارب الإنسانيّة، الأمر الذي أثّر في تشكّل وعي الشّخصيّة العربيّة؛ فظهر الآخر الغربيّ، مكانًا خصوصًا، بوصفه فضاءً لتحقيق الذّات والخلاص من قيود الواقع المحليّ، غير أنّ هذه الصّورة تخضع لاختبارات الواقع فتتباين النّتائج بين تحقيق النّجاح وخيبة الأمل.

يتّضح هذا في رواية «جنون اليأس»؛ إذ يشكّل الآخر الغربيّ مفتاح النّجاح الذي ينقذ «نديم نصرة» من الفشل والشّعور بالدّونيّة، بعد أن وفّر له بيئة تمكينيّة ساعدته على تجاوز محدوديّة الفرص في وطنه الأُم، وعليه لم يكن ليحقّق نجاحه في «لندن» لولا مساعدة شخصيّات غربية، مثل السيّدة الإنجليزيّة «جوليا» وزوجته «مورين»، اللّتين قدّمتا له الدّعم الذي لم يكن متاحًا له في مجتمعه الأصليّ. غير أنّ الرّواية لا تغفل التّناقض الكامن في هذه الرّؤية؛ فبينما يحظى «نديم» بمسار ناجح بفضل دعم الغرب، تكتشف «مليحة» أنّ تعليق العربيّ تحقيق آماله على الغرب ليس إلّا سرابًا؛ إذ تواجه ظروفًا معيشيّة قاسية تناقض التّصورات المثاليّة التي حملتها عن «لندن» قبل سفرها إليها. فمجرّد وصولها «لندن» قادمة من وطنها العربيّ عاشت في غرفة صغيرة داخل فندق مزدحم باللّاجئين والمهاجرين[٨١]، ما ضاعف شعورها بالعزلة والخيبة، وجعلها تعيش نفورًا مستمرًّا مع زوجها الذي فقد عمله ولم يتمكّن من تحقيق ما كانت تطمح إليه من رخاء معيشيّ. تقول مخاطبة زوجها: «كيف ترضخ للواقع وأنت تعيش في لندن مدينة الفرص والطموحات التي لا حدود لها؟ الفرد هنا يعطى الحرية المطلقة وتُهيأ أمامه الظروف»[٨٢]. هذه المفارقة تعكس رؤية نقديّة للصّورة النّمطيّة التي تروّج للغرب كمصدر خلاصٍ نهائيّ؛ إذ يظلّ النّجاح رهينًا بعوامل متعدّدة تتجاوز حدود الجغرافيا والأحكام النّمطيّة.

أمّا في رواية «ظلّ هبرومافرديتوس»، فيقدّم الآخر الغربيّ بوصفه حضنًا متفهّمًا

[٨١] جنون اليأس، ص.٣٧.
[٨٢] نفسه، ص.٥٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

مقارنةً بالمجتمع العربيّ الذي تتّسم نظرته بالصّرامة والتّقليديّة. تسلّط الرّواية الضّوء على تجربة الشّخصيّة «سعاد» إذ ترى أمريكا فضاءً يتقبّل اختلافها ويمنحها الأمان. تصفُ الشّخصيّة «بنسلفانيا» بأنّها مدينة «الحبّ الأخويّ»[٨٣] رغم تعدّد الأعراق فيها، والنّاس فيها ليسوا «مثل العرب» الذين يتحيّزون للخلاف والمواقف على حساب الحب[٨٤]. وتكرّر في غير موضع معنى أنّ هذه المدينة الأمريكيّة «تحتوينا حين تنفينا إليها أخرى، إنها كالبشر تمامًا، نفشل في حبٍّ فيتلقفنا آخر، نضيع في طريق فيدلنا غيره»[٨٥]، وهو تشبيه يعكس مدى الألفة التي شعرت بها في هذا المكان الجديد. تعزّز هذه التّجربة فكرة الغرب بوصفه ملاذًا آمنًا للأنا، إذ تتقاطع الأبعاد الثّقافيّة والاجتماعيّة لتعزيز الفردانيّة والتّسامح، وهو طرح يحمل في طيّاته نقدًا ضمنيًّا للمنظومات المجتمعيّة التّقليديّة التي ترفض الاختلاف. وتظهر شخصيّات أُخرى تدعم رؤيتها الإيجابيّة للغرب، مثل المرأة الأمريكيّة التي وفّرت لها السّكن، وصديقتها «أوليفيا» ذات الأصول العربيّة، التي تفهّمت معاناتها كما لم يفعل أحدٌ من قبل في وطنها، بالإضافة إلى الطّبيب الأمريكيّ الذي شخّص حالتها بوضوح ودون إطلاق الأَحكام عليها، وساعدها في العلاج.

أمّا في «أصابع مريم»، فيتكرّر الدّافع للهجرة بوصفه وسيلة لتحقيق الأحلام والهروب من قيود الواقع. إذ رغم صعوبة الاغتراب، تكتشف «نوال» في «كندا» أنّ الوطن الجديد يتيح لها آفاقًا أوسع، ممّا يعكس التّوتر المستمرّ بين الحنين للوطن والرّغبة في تحقيق الذّات خارجه[٨٦]. على الرّغم من شعورها بالغُربة والتّهجير، فإنّها تجد أنّ كندا أخرجتها «من شرنقة الحياة الضّيقة إلى حياة أكثر اتساعًا»[٨٧]. هذا التّناقض بين المعاناة والفرص يعكس إشكاليّة الانتماء التي تواجهها الشّخصيّات العربيّة المهاجرة، إذ يصبح الآخر الغربيّ بديلاً عن الوطن لا فقط على المستوى الجغرافيّ، بل أيضًا على مستوى الهويّة وتحقيق الآمال والتّطلّعات. وتبرّر «نوال» رحيلها بقولها: «لم أكن أبغي البقاء حبيسة داخل قوالب جاهزة تقيد أحلامي ورغباتي، وأشياء كثيرة لا

(٨٣) ظلّ هيرمافرديتوس، ص.٩٠.
(٨٤) نفسه، ص.٩١.
(٨٥) نفسه، ص.٨٩.
(٨٦) أصابع مريم، ص.٢٠٥.
(٨٧) نفسه، ص.٢٠٥.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

حصر لها أمام طموحي وتطلعي...» [٨٨]، ممّا يعكس سعيها المستمرّ للخروج من قيود المجتمع المحليّ.

ويتّخذ الآخر الغربيّ في «كارما الذّئب» طابعًا علميًّا ومعرفيًّا، إذ يشكّل بوابة لتحقيق التّميز الأكاديميّ. ومن ذلك تجربة «سلام» في الغرب إذ تُظهر التّقدّم العلمي والانضباط المؤسسيّ اللذين يفتقدهما في بلده، لكنّه في النّهاية يصطدم بحقيقة أنّ الآخر الآجنبيّ ليس مثالياً كما تصوّر في البداية. فقد حصل على فرصة نادرة للتّدرب في مركز «سيرن» الأوروبي لفيزياء الجسيمات النووية[٨٩]، وأذهلته المختبرات المجهزة والتّقدير الذي لقيه هناك، ممّا عزز لديه صورة الغرب بوصفه أرض المعرفة والفرص العلميّة. وقد خيّبت عودته إلى وطنه آماله؛ إذ لم يجد بيئة علميّة تحتضن طموحاته، فاضطرّ للسّفر إلى أمريكا لمواصلة أبحاثه في معهد .MIT لكن رغم تفوّقه الأكاديميّ، اصطدم بالواقع الرّأسماليّ القاسي الذي لا يمنح الفرص بسهولة، ليجد نفسه في وضعٍ غير مستقرّ، يعمل بعقود بحثيّة مؤقّتة لا تضمن له الأمان الوظيفيّ.

وتنظر «حميدة» في «كارما الذّئب» إلى الآخر الأجنبيّ بوصفه مكانًا لتحقيق الذّات والثّراء، إذ تستغلّ انتقالها مع زوجها إلى «لندن» لإكمال دراستها، ثمّ تستثمر بذكاء في الأسواق الماليّة، حتّى يصبح زوجها نفسه يعتمد عليها في إدارة استثماراته. وهنا، يصبح الآخر الغربيّ فضاءً لتحقيق الاستقلاليّة الاقتصاديّة، وليس مجرّد مكان للهروب أو البحث عن فرصة.

إجمالًا، تعكس الرّوايات المدروسة جدليّة العلاقة بين الأنا والآخر، إذ تتراوح هذه العلاقة بين الأمل والإحباط، وبين النّجاح والانكسار. يتّضح أنّ صورة الغرب ليست موحّدة أو ثابتة، بل تتفاوت بين كونه ملاذًا ومنفى، حلمًا وكابوسًا، ممّا يجعل هذه الأعمال تطرح تساؤلات أعمق حول معنى الانتماء، وحدود الهويّة، وإمكانيّة تحقيق الذّات في سياقات ثقافيّة مغايرة. ويظهر أنّ تحقيق الأحلام في الغرب ليس أمرًا مضمونًا، بل هو مشروط بتحدّيات الواقع، سواء على المستوى المهنيّ، أو الاجتماعيّ، أو النّفسيّ. بذلك، تتجاوز هذه الرّوايات التّصوّرات السّطحيّة للغرب، لتقدّم مقاربة نقديّة

[٨٨] نفسه، ص.٢٠٦.
[٨٩] كارما الذئب، ص.٦٩.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

تتّسم بالعمق والتّعقيد.

٤. جدليّة الحضارة والإنسانيّة

يُقدَّم الغربيّ في مدوّنة الدّراسة بوصفه متحضرًا تحكمه القوانين، بينما يظهر العربيّ في كثير من الأحيان مخالفًا لهذه القوانين، إمّا بدافع الجهل بها أو بسبب موقفه السّلبيّ منها. في «جنون اليأس»، نجد أن القوانين الصحية التي تهدف إلى الحفاظ على الصحة العامة في «لندن» تُقابَل بكسرها من قِبل العربي «نديم»؛ إذ حمل ذبيحة في القطار العام، مما أثار ذعر الركاب واستدعى تدخّل الشرطة، التي أخلت سبيله بعد التحقق من حالته العقليّة. وعلى الرّغم من موقفه السّلبيّ تجاه القانون، إلّا أنّ «نديم» نفسه يُثني على القوانين حين يستغلّها لصالحه، مثل تأكيده على أهميّة تطعيم الكلاب ضدّ داء السّعار في إنجلترا، ممّا يعكس ازدواجيّة التّعامل مع القوانين وفقًا للمصلحة الشّخصيّة.

تمثّل الرّواية الآخر الغربيّ رمزًا للحضارة والتّقدم، إذ يعود الفضل في نبوغ «نافع» العلميّ إلى فرص التّعليم والتّدريب التي وفّرتها له إنجلترا، كما أنّ التّقدم الطّبيّ هناك مكّن زوجته «مليحة» من تحقيق حلمها في الإنجاب عبر التّلقيح الصّناعيّ، وهو ما يعكس مدى تطوّر الطّب في الغرب مقارنةً بوطنه الأصليّ. ولا يقتصر هذا التّقدم على الطّب فقط، بل يشمل القوانين التي تحفظ الحقوق، والتي على الرّغم من كونها تُستخدم أحيانًا كأداة ضغط، كما فعلت «مورين» مع زوجها، إلا أنّها تبقى جزءًا من النّظام الذي يحقّق العدل في المجتمعات الغربيّة.

إضافة إلى ذلك، تُبرز الرّواية نظام الحماية الاجتماعيّة في الغرب، إذ تمكّن «نافع» من تأمين معيشته بعد فقده وظيفته بفضل هذا النّظام، كما حصل على شقّة بمساعدته، مما يعكس دور الدّولة في ضمان حياة كريمة للأفراد. غير أنّ بعض الشّخصيّات العربيّة تحايلت على هذه القوانين، مستفيدةً من النّظام الغربيّ، بأساليب غير قانونيّة، ممّا يبرز تعقيد العلاقة بين الأنا العربيّ والآخر الغربيّ، إذ تُستغل القوانين لتحقيق مكاسب فرديّة بدلاً من تطبيقها كما ذكرنا سابقًا.

وفي «نارنجة»، يُنظَر إلى الآخر الغربيّ نظرة إعجاب لقدرته على تحقيق المعجزات، كما كان الحال مع طبيب الإرساليّة الإنجليزيّة «توماس/ طومس»، الذي

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

ذاع صيته بين النّاس، فكانوا يرونه أقرب إلى القدّيسين الذين يمتلكون قدرة خارقة على الشّفاء[٩٠]. لكن الرّواية تكسر هذه الصّورة النّمطيّة من خلال سرد فشل الطّبيب في علاج الجدة[٩١]، ممّا يؤكّد أن الغرب، رغم تقدّمه، لا يمتلك حلولًا لكلّ المشكلات. هذه المقاربة النّقديّة تُبرز موقفًا أكثر توازنًا تجاه الغرب، إذ لا يُنظر إليه كقوّة مطلقة، بل بوصفه كيانًا له نجاحاته وإخفاقاته.

وتبرز الرّواية ذاتها إلحاح الغربيّ في تقديم نفسه متقدّمًا في كلّ شيء، بما في ذلك معالجة الحزن، إذ تنصح «كريستين» صديقتها العربيّة «زهور» بالذّهاب إلى معالج نفسيّ[٩٢]، لأنّ ثقافتها تؤمن بوجود حلّ لكلّ مشكلة، وهو ما يوضح الفارق في منظور كلّ طرف للحياة والمشكلات النّفسيّة. ومع ذلك، تظلّ اللّغة حاجزًا بين الأنا والآخر، إذ تشعر الشّخصيّة العربيّة بعدم قدرتها على التّعبير بوضوح لدى الطّبيب المعالج الذي ظلّ لا «يرى إني [زهور] معاقة، إني مربوطة إلى كرسيّ المعاقين: عجز اللّغة عن احتوائي»[٩٣]، ممّا يعزّز الفجوة بين الثّقافتين ويؤكّد أنّ الانفتاح على الغرب لا يعني الذّوبان التّام فيه.

أمّا في «ظلّ هيرمافرديتوس»، فتظهر إنسانيّة الغرب من خلال تقبّله للآخر المختلف، إذ أن المجتمع الغربيّ قدّم لـ«سعاد» العلاج والتّشخيص الذي افتقدته في مجتمعها الأصليّ، حيث كانت تُعامل بنظرة منبوذة بسبب حالتها الطّبية[٩٤]. يتجلّى هذا التّقبّل أيضًا في تعامل سيّدة أمريكيّة معها بحبّ وتعاطف، ممّا يدفع «سعاد» للمقارنة بين انفتاح الغرب وانغلاق مجتمعها الذي يرفض المختلف ويقصيه. كما أنّ هذه الرّواية تبرز كيف أنّ البيئة الغربيّة قدّمت لها فرصة جديدة في الحياة، بعيدًا عن نظرات التّنمر والرّفض التي واجهتها في وطنها، مما يجعلها ترى الغرب ليس فقط كمصدر للتّقدم العلميّ، بل أيضًا ملاذًا إنسانيًّا يحترم الفرديّة والاختلاف.

هذه النّظرة الإيجابيّة للغرب تظهر كذلك في «أصابع مريم»، إذ يعبّر «حمد» عن

---

[٩٠] نارنجة، ص.٩٧.
[٩١] نفسه، ص.١٧.
[٩٢] نارنجة، ص.٦٢.
[٩٣] نفسه، ص.٦٣.
[٩٤] ظلّ هيرمافرديتوس، ص.-ص.٩٢-٩٣.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

انبهاره بتقدّم الغرب، ويراه نموذجًا للتّحضر والحريّة والقانون، مقارنةً ببلده الغارق في الصّراعات والتّخلف. فالغرب، في نظره، هو المكان الذي يتيح للنّاس حريّة الفكر، والتّعبير، ويهتمّ بالتّطور العلميّ والتّقنيّ، ويسنّ القوانين التي تنظّم حياة النّاس، بينما تفتقد بلاده لهذه العوامل، ما يجعله يشعر بالإحباط من مجتمعه الذي يظلّ عالقًا في صراعات تقليديّة تعيق تقدّمه.

ويبرز «سلّام» في «كارما الذّئب» مظاهر تحضّر الغرب من خلال تقدّمه العلميّ وتخطيطه الحضريّ وقوانينه التي تحمي حقوق الإنسان. غير أنّ هذا الإعجاب مشوب بانتقاد الإعلام الغربيّ المضلّل وسياسته البراغماتيّة، مما يكشف عن نظرة غير أحاديّة للغرب. ورغم الفرص التي أتاحها الغرب لـ«سلام»، فإنّه أدرك أنّ هذا التّقدير قائم على المنفعة، حيث لا تظهر «الماكينة الأمريكيّة»[٩٥] الكثير من الإنسانيّة إلا إذا كان ذلك يخدم مصالحها. يقول: «أخبرني معظم زملائي العرب بأن الماكينة الأمريكية لا تتوقف عن التطلب ولا تظهر الكثير من الإنسانية إلا إذا كان ذلك يصب في مصالحها العامة»[٩٦]. يتأكّد هذا الأمر حين تُجبر زوجته «ناتالي» على الاستقالة من عملها بعد مضاعفات حملها؛ ما يؤكّد أنّ قوانين السّوق والرّبح قد تطغى على البُعد الإنسانيّ في بعض المواقف.

إضافة إلى ذلك، تعكس الرّواية كيف أنّ الفرص التي يتيحها الغرب قد لا تكون دائمًا بلا ثمن. ففي حين أن «حميدة» استطاعت تحقيق النّجاح الاقتصاديّ من خلال استثمارها في سوق المال، فإنّ ذلك جاء ضمن إطار استغلال الفرص الاقتصاديّة التي يتيحها النّظام الغربيّ وليس بدافع إنسانيّ بحت، مما يعكس طبيعة الرّأسماليّة الغربيّة التي قد تبدو جاذبة من الخارج، لكنّها في جوهرها قائمة على المصالح والتّنافس.

هكذا، تعكس هذه الرّوايات صورًا متباينة عن الآخر الغربيّ، تجمع بين الإعجاب بتقدّمه وانتقاد ممارساته، مما يخلق توازنًا في الطّرح الأدبيّ بين الانبهار والوعي النّقديّ. يظهر الغرب في هذه الأعمال بوصفه فضاءً للتّقدم والحريّة، لكنّه أيضًا ليس مثاليًّا، إذ أنّ بعض مظاهر التّعامل الإنسانيّ فيه قد تكون مشروطة بالمصلحة والمنفعة.

---

[٩٥] كارما الذئب، ص.١٧٨.
[٩٦] نفسه، ص.١٧٨.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

كما تسلّط هذه الرّوايات الضّوء على الفجوة بين القيم الغربيّة والعربيّة، ممّا يعكس تعقيد العلاقة بين الأنا والآخر في الرّواية المدروسة، إذ لا يكون اللّقاء بين الثّقافتين مجرّد احتفاء مبالغ به بالغرب، بل هو مساحة للتّفاعل، والصّراع، وإعادة تعريف الهويّة.

٥. غواية الجسد

يمثّل الجسد عنصرًا محوريًا في بنية الخطاب الاستعلائي الذي تعتمده الذات العربيّة في تمثيلها للآخر الغربي. فعلى الرغم من الانجذاب الظاهري للجسد الغربي وما يحمله من دلالات جماليّة، فإنّ هذا الانجذاب يتقاطع مع خطاب ثقافي يُعلي من شأن العفّة والحشمة، ويعدّهما من القيم المؤسِّسة للهوية الأخلاقيّة العربيّة. ويؤدّي هذا التداخل بين الإعجاب الجسدي والمواقف القيميّة إلى بلورة تصوّر خاص في الذّهنيّة العربيّة، يتمثّل في النّظر إلى الرّجل الغربيّ بوصفه يفتقر إلى «الغيرة» التي تُعدّ، وفق هذا النّسق الثّقافيّ، إحدى الرّكائز التّعريفيّة للرّجولة.

وانطلاقًا من هذه الفكرة، قُدّم الجسدُ في المدوّنة الرّوائية قيد الدّراسة بوصفه عنصرًا محوريًا في تمثيل الآخر الأجنبيّ، حيث تتجلّى المرأة الغربيّة رمزًا للغواية والتّحرر، فيما تُصوَّر المرأة العربيّة برزانتها واحتشامها. ويعكس هذا التّمثيل نظرة الأنا العربيّ إلى الآخر الأجنبيّ ضمن إطارٍ تتداخل فيه الرّغبة والاغتراب والتّوتّر الثّقافيّ، والنّزوع نحو التّنفيس عن مكبوتات الذّات.

في رواية «جنون اليأس»، يعكس حبّ «نديم نصرة» للإنجليزيّة «مورين» وجاذبيّة جسدها تجسيدًا للرّغبة في الآخر الغربيّ، إذ يسرد لاحقًا خلاصة تجربته إلى «مليحة» قائلاً: «ما أقوله الآن خلاصة تجارب طويلة ومعايشة لصيقة في مجتمعات الغرب وثقافته وطرق تفكيره يتطلب من المرأة الغربيّة إغواء الرجل وإثارته جنسيًا، لأن نظرته لها تقوم على الشهوة، في عالم يستند إلى المادة أكثر من الروح»[٩٧]. ويُبرز هذا التّصور العلاقة بين الجسد الغربيّ باعتباره موضع إغواء وبين الأنا العربيّ الذي يرى في هذه العلاقة منفذًا للتّنفيس عن مكبوتات المجتمع الشّرقي.

أمّا في رواية «نارنجة»، فإن استعادة «زوج سميّة» لذكرياته أثناء دراسته في

[٩٧] جنون اليأس، ص.١٣٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

أستراليا تكشف عن تجربة مختلفة لكنها تنسجم مع التمثيلات السابقة؛ حيث يصف «بمرح أجساد البنات اللّواتي كنَّ يتهالكن عليه»[٩٨]. هذا المشهد لا يعكس فقط انجذاب الأنا العربيّ إلى المرأة الغربيّة، بل يُظهِر كذلك نظرة الأنا العربيّ إلى الغرب كفضاء تحرّر جسديّ يتناقض مع البيئة التّقليديّة التي جاء منها. لقد وقعت الرّؤية العربيّة للمرأة الغربيّة ضحية للتنميط الجسديّ، والمعروف أنّ «الصورة النّمطية تؤدي إلى تحيز (Bias) في العمليات المعرفية المختلفة التي تكتنف عملية الإدراك الاجتماعي»[٩٩] ومن هذا المنطلق تهافتت الأنا الذّكوريّة العربيّة في المدوّنة غالبًا خلف تحيّزها السّلبيّ للجسد الغربيّ.

وفي رواية «ظلّ هيرمافرديتوس»، يظهر الزّواج وسيلةً لتجسير الفجوة بين الشّرق والغرب، إذ يتزوّج «ناصر» من الأمريكيّة ذات الأصول الفلسطينيّة «أوليفيا»، مقيمًا علاقته على ما يشفّ المحكيّ عن انبهار الأنا بجسد االآخر دون غيره. لكن زواجهما يظلّ محكومًا بعاملين: الأوّل، تردّده في إخبار عائلته، «فالخوف من ردة فعلهم لا يزال مسيطرًا عليه»[١٠٠]، ممّا يعكس القلق العميق من رفض المجتمع الشّرقيّ لهذه العلاقة، انتحار «أوليفيا» رغم إنجابهما ثلاثة أطفال، وهو ما يمكن قراءته بوصفه مؤشرًا على استحالة التّوفيق بين الثّقافتين رغم مساعي التّقارب بينهما.

وفي «أصابع مريم»، يتجلى بعدٌ أعمق للعلاقة بين الأنا العربيّ والآخر الغربيّ. فرغم تجاوز العلاقة بين «ناصر» والرّوسيّة «ماريز» حدود الانبهار الجسديّ بالمرأة ظاهرًا وتركيزها على تقدير شخصيّة الأجنبية وثقافتها، إلا أنّ الرّواية تؤكّد في مواضع أُخرى على مركزيّة الجسد في هذه العلاقة بين الطرفين. فالجسد، وفقًا للسّرد، لا يمثّل عنصر إغواء فقط، بل هو أيضًا وعاء للهويّة والتّاريخ، كما تبرز ذلك عبارة «إنّ الأجساد تختزن التّاريخ، وجسدك هو تاريخك...» [١٠١] التي حضرت في ذهن «ناصر» بمجرّد التّفكير في «ماريز» بعد سنوات.

---

[٩٨] نارنجة، ص.٧١.

[٩٩] حلمي خضر ساري، المرأة كآخر: دراسة في هيمنة التّنميط الجنسانيّ على مكانة المرأة في المجتمع الأردنيّ، ضمن كتاب: صورة الآخر: العربيّ ناظرًا ومنظورًا إليه، سابق، ص.٧٦٣.

[١٠٠] ظلّ هيرمافرديتوس، ص.١٤٧.

[١٠١] أصابع مريم، ص.٩٥.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

وتؤكّد رواية «كارما الذئب» هذا الطّرح عبر شخصية «سلّام»، إذ يلاحظُ افتتان زملائه العرب في أمريكا بالنّساء الغربيّات، وتهافته خلف «الأمريكيات الجميلات الشقراوات»[١٠٢]، بينما ينشغل هو بأبحاثه. ومع ذلك، يجد نفسه منجذبًا إلى زميلته اليابانيّة «كيكو» بسبب ذكائها وجمالها ولكنتها الإنجليزيّة[١٠٣]، لكنّه يختار إبقاء العلاقة ضمن حدود العاطفة العابرة؛ دلالةً على تمسكه بجذوره ورغبته في العودة إلى وطنه. ومع عودته إلى أمريكا مجدّدًا، تتكرّر تجربة الانجذاب الجسديّ بين الطّرفين عندما يلتقي بـ«ناتالي» الإنجليزيّة، ليقرّر الزّواج بها لاحقًا.

من خلال هذه النّماذج الرّوائيّة، يتّضح أنّ الجسد ليس مجرّد أداة للرّغبة، بل هو أيضًا موضع للتوتّر الثّقافيّ والهويّاتيّ. فالمرأة الغربيّة تُصوَّر غالبًا ضمن ثنائيّة الإغواء والتّحرر، فيما تُصوَّر المرأة العربيّة برمزيّة الاحتشام والخصوصيّة الثّقافيّة. ومع أنّ العلاقات بين الأنا العربيّ والآخر الأجنبيّ تتنوّع في مدوّنة الدّراسة بين الانبهار العابر، والعشق العميق، والزّواج الذي يهدف إلى تجاوز الفجوة الثّقافيّة، فإنّ الجسد يظلّ محورًا أساسًا لهذه التّمثيلات، ليعكس في نهاية المطاف الإشكاليّات العميقة بين الشّرق والغرب، ليس فقط على مستوى العلاقات العاطفيّة، بل أيضًا على مستوى الهويّة والانتماء.

أخيرًا: خاتمة

عبرت الكاتبات العُمانيّات عن العلاقة بين «الأَنا» العُمانيّ – العربيّ مقابل «الآخر» الأجنبيّ عبر خطابهن الرّوائيّ في أبعادها الثّقافيّة والسياسية والاجتماعية التي كان لها الأثر الأكبر في تشكل الأعمال الروائية النّسويّة العُمانيّة محلّ الدّراسة.

ظهرت تمثيلات «الأَنا» العُمانيّ – العربيّ مقابل «الآخر» الأجنبي في الرّواية النّسويّة العُمانيّة بين ٢٠١١ و٢٠٢١ عبر الأنا الغارقة في الملذات الحسية، والأنا بين الذكر والأنثى: الهشاشة والعورة، والأنا المنفصمة: التناقض الأخلاقي الخفي، والأنا الرجعية والفساد، وجدلية الصراع الحضاري بين الأنا والآخر، والأنا والخرافة.

عبرت الروايات المدروسة عن الآخر الأجنبي عبر العديد من التمثيلات أهمها: الآخر عنصريا، والآخر مستعمرا، والأحلام والفرص، وجدلية الحضارة والإنسانية،

[١٠٢] كارما الذئب، ص.٧٥.
[١٠٣] نفسه، ص.٧٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

وغواية الجسد.

يضع السرد النسوي - محل الدراسة- تحت مجهره النقد الذاتي حيث يشي إلى أنه يحتاج إلى رؤية واضحة تسهم في تشكيل هوية عربية خالصة على أن يؤخذ في الحسبان التمسك بخصوصيتها، فكان من الضروري أن يصبح السرد وسيلة في الآن ذاته؛ لكشف تناقضات المجتمع العربي، حيث تعيش الأنا صراعا مستمرا بين ثنائية السلوك والقيم، والواقع والمأمول، والرجعية والتقدم.

أظهرت الرّوايات النسوية - محل الدراسة- صراعًا للهويّات بين الانبهار بالغرب والتّمسك بالجذور؛ فحاولت شّخصيّاتها العربيّة - الممثّلة للأنا- محاولات متباينة للتّعاطي مع سطوة الآخر وهيمنته؛ بوصفه قوّة استعماريّة مؤثّرة على وعي الشّرق وهويّته، فمنهم من يُسلّم له تماما، ومنهم من يحاول مقاومته نسبيًّا.

يدور محكي المرأة في المتن الرّوائيّ النّسويّ - محلّ الدّراسة- حول موضوع الجسد، بوصفه محورًا لتمثّلات العلاقة بين الأنا والآخر وموضعًا للتوتّر الثّقافيّ والهويّاتي، فيصبح الجسدُ مؤثّرًا وفاعلًا من فواعل العمل الرّوائيّ النّسويّ، بل منفذًا نحو استكشاف الهويّة العربيّة بحمولاتها الثّقافيّة المؤسّسة في العلن على منطق الانفتاح والانطلاق والاحتشام.

ISSN: 2537-0847 eISSN: 2537-0898

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

١- غالية آل سعيد، **جنون اليأس**، ط١ بيروت، رياض الريس، ٢٠١١.

٢- جوخة الحارثي، **نارنجة**، ط١، بيروت، دار الآداب، ٢٠١٦.

٣- بدرية البدري، **ظِل هيرمافروديتوس**، ط١، لندن، دار عرب، ٢٠١٨.

٤- عزيزة الطائي، **أصابع مريم**، ط١، الكويت، دار الفراشة، ٢٠٢٠.

٥- بدرية الشحي. **كارما الذئب: فيزياء ٢.** ط١، بيروت، دار سؤال، ٢٠١٩.

المراجع:

١- طارق الطيّب، **صورة الأنا – الآخر في الرواية وفي الحياة (تجربة شخصيّة وأدبية)**، ضمن: صورة الأنا والآخر في الرواية، ط١، الشارقة، دائرة الثّقافة والإعلام، ٢٠١١.

٢- محمد بن يحيى أبو ملحة، **التيارات الفكرية في الرواية السعودية والموقف من الآخر**، ضمن: تمثيلات الآخر في الرواية العربيّة، ط١، بيروت، دار الانتشار، ٢٠١٠.

٣- روجر آلن، **الرواية العربيّة: كتابة تاريخها ولزوم إعادة كتابة تاريخها**، ضمن: صورة الأنا والآخر في الرواية، ط١، الشارقة، دائرة الثّقافة والإعلام، ٢٠١١.

٤- محمد نجيب العمامي، **صورة الآخر في بواكير الرواية العربية**، ضمن: تمثيلات الآخر في الرواية العربيّة، ط١، بيروت، دار الانتشار، ٢٠١٠.

٥- إدوارد سعيد، **الاستشراق: المفاهيم الغربيّة للشّرق**، تر. محمد عناني، ط١، القاهرة، رؤية للنّشر والتّوزيع، ٢٠٠٨.

٦- ديريك هوبود، **التصورات الجنسية عن الشرق الأوسط: البريطانيون والفرنسيون والعرب**، تر. ناصر مصطفى أبو الهيجاء، مرا. أحمد خريس، ط١، أبوظبي، أبوظبي للثقافة والتراث: مشروع كلمة، ٢٠٠٩.

٧- بيار بورديو، **الهيمنة الذكورية**، تر. سلمان قعفراني، مرا. ماهر تريمش، ط١، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

٨- جميل حمداوي، **صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي، مجلة الأزمنة الحديثة**، المغرب، ع.٣-٤، أكتوبر ٢٠١١.

٩- شيماء نجم صفر، **تشظي الذات وتحلل الشخصية وعلاقتهما بالكرب النّفسي**، ط١، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ٢٠١٤.

١٠- مصطفى حجازي، **التخلّف الاجتماعيّ: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور**، ط٩، بيروت، المركز الثقافي العربي،٢٠٠٥.

١١- برهان غليوم، **الوعي الذاتي**، ط٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٢.

١٢- أسماء العريف بياتريكس، **الآخر أو الجانب الملعون، ضمن كتاب: صورة الآخر: العربي ناظرًا ومنظورًا إليه**، تح. الطاهر لبيب، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩.

١٣- حلمي خضر ساري، **المرأة كآخر: دراسة في هيمنة التّنميط الجنسانيّ على مكانة المرأة في المجتمع الأردنيّ**، ضمن كتاب: **صورة الآخر: العربيّ ناظرًا ومنظورًا إليه**، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩.

ISSN: *2537-0847* eISSN: *2537-0898*